مجلة البيان – العدد 10 ، جمادى الآخرة 1408 هـ / فبراير 1988م

@الافتتاحية

هل المسلمون بحاجة إلى منهج نقدي؟

من عادتنا ، عندما نريد أن نتحدث عـن مقومات النهوض وأسباب الفشل؛أن نلقي باللوم الأكبر على الأسباب الخارجـية ، كأن نلــوم الاستعمار وأعداء الإسلام ، هذا في الغالـب، وأحيانًا نحب أن نكون أكثر إنصافًا فنقول : إن هناك أسبابًا داخلية في المسلمين أنفسهم. ولكن هذه الأسباب تظل في دائرة الكلام الـعـام غـيــر المـحـدد، وغـيـر المحلل ، والـجمل الوعظية التي تستهلك كثيرًا من جهود الدعاة ، ويظنون بعدها أنهم قــد قاموا بالواجـب، وأزاحوا عبء المسؤولية عن كواهلهم ، وكثيرًا ما يستنيمون لعبارات الإطــراء والمديح التي تـكـال لهــم ممن يسمعونهم من عامة الناس ، ويجدون متعة داخلية لا حــدود لها وهـم يحاطون بمثل هذه الكلمات: ما شاء الله .. سبحان الله . . الله يفتح عليك .. الخ .

وبهذا يـتـضــح أن ما يسمى بـ "النقد الذاتي" القائم على منهج محدد غير متأثر بالأهواء والعواطف لا زال أمــرًا بعيد المنال عند المسلمين ، ولازالوا لا يملكون الجرأة على إحلاله المكانة اللائقة في حياتهم ، ولا زالت الطبقة التي تقع عليها مسؤولية حمل الدعوة - وهي طبقة المثقفين وقادة الـفـكــر - تشـمـئـز مــن النقـد ، وتعتبره عملاً تخريبيًا هدامًا مثبطًا ، وتضفي عليه شتى الأوصاف المنفرة ، ولا تنسى أن تسـنـد حيـثـيـات التهرب من النقد بما يصح وما لا يصح من الأدلة الشرعية .

هذه مقدمة لابد منها عند التعرض لبعض أمراضنا التي نعانيها ، والتي تـعـيـقـنـا ليس عن البناء فقط؛ بل عن التقدم ولو قليلاً في أحيان كثيرة .

وإن مـن أهـم الأمــراض الـتـي نـتـوارثـهـا، وتكاد تكون قد أصبحت ظاهرة تتحكم بنا، ما نلاحظه عندما تطرح بعض الأسماء المـشـهــورة ومـواقـفنا منها ، فإن هذه المواقف تكون في الأغلب مطبوعة بطابع المغالاة: حبًا أو بغضًا ، اتباعًا أو نبذًا .

ومن أجل تفصيل هذه المسألة نقول :

إن داء التفرق قد ضرب المسلمين ، وسمومه قــد مـشـت في أوصالهم .ومع أن هذا الداء من أكثر الأدواء التي حذرنا منها ديننا الحنيف قرآناً وســنـة، إلا أننا مــاضــون فـيـه، غير ملتفتين إلى العواقب .

ومن أهم الأسباب التي تذكي هذا التفرق ، وتؤدي إلى ضياع الجهود؛ الأفكار المسبقة التي تكون نتيجة للنظرة المتسرعة إلى الآراء والشخصيات. قلِّبْ أفكار كثير من الجماعات - كل جماعة على حدة -في الأشخاص ، فإنك تجد

نظرة أحادية الجانب ، قد تكون صـــدى لآراء شخص مشهور فيها ، وهذه الآراء المرتجلة آتية إما عن عدم تعمق في الدراسة ، أو بنظرة شخصية؛أو بقصور في التحليل؛ أو قيلت في ظروف معينة اقتضتها .
فمثلاً إذا أحب قوم شخصًا رفعوه إلي درجة التقديس ، ولم يعودوا يقبلون فيه نقدًا ، أو يــرون فـيه أي مجال لأي مأخذ ، وحتى إذا كانت له أخطاؤه التي يصعب الدفاع عنها؛ ترى أنـصـاره ومحبيه يلوون الحجج ، ويلفقون الأدلة ، ويعتسفون في الدفاع ، ويجهدون أنفسهم فيما لا طائل تحته، وكان الأجدى عليهم، والأرحم بالرجل أن يقال: إنه أخطأ في هذا ، وتنتهي القضية.
والاعتراف بالخطأ من قبل الشخص أو مريديه لا ينزل من مكانة ، ولا يجحد الفضيلة ، ولا يخرج من جنة ، أو يدخل في نار ، ولكنه التعصب المذموم ، والبعد عن الوسطية .
وقل مثل ذلك في حالة ما إذا كرهوا شخصًا لسبب من الأسباب، فإن الهوى المتحكم يهوي به وبسمعته إلى الحضيض، ولا تعود نفوس القوم تتقبل ما يمكن أن يقوله من حق في ذاته، ويصعب عليها أن تستمرئ إنصافه ، وينقلب التمحل في الأدلة لبراءة المحبوب إلى تمحل في اصطياد العثرات للمُبَغَّض، وتَّجَنَّ في تلفيق التهم والإشاعات ضده، حتى يصبح كالمنبوذ الـــذي إن عاش غير مؤذٍ للمجتمع بأفكاره التي تجيء نتيجة إحساسه بالنبذ؛فإنه يعيش عضوًا أشلَّ غير منتج في المجتمع.
وهــكــذا، ونـتيـجة لهذا الاتجاه السائد في تقويمِ الناس والآراء، يفقد المجتمع التوازن، ويغدو من الصعب أن تجد لك مكانًا في مجتمعات مشطورة إلى شطرين: أنبياء وشياطين !
وفي مجال الثقافة يتوقف التجديد، وتتجمد الآراء عند نقاط معينة، حيث لا تبقى حاجة إلى دراسة أو مراجعة ، فقد كفى الزعماء والقادة الناس مؤونة التفكير بإشاراتهم الملهمة! وتوجيهاتهم المعصومة حيال الوقائع والأحداث ، مع أن هذه الإشارات والتوجيهات تلقي بظلالها التربوية السلبية ، وتعطي مردودًا سيئًا في الواقع الإسلامي ، وترسخ جذور عبادة الأشخاص ، وقتل الطموح من جهة ، وغمط الناس أشياءهم من جهة أخرى .
وإذا أردنا أن نتقدم خطوة في رصد هذه الظاهرة ، فإن العجب يتملكنا عندما نرى أن من المسلمين من ينتحل المعاذير ، ويقيل العثرات لغير المسلم ، فيأخذ عنه في بعض جوانب التفكير والاجتهاد - بحجة الانفتاح واتساع الأفق »والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها« - ! مع أنه يختلف عنه في الأصول؛ ويشيح بنظره ، وينأى بنفسه بتاتًا عن أخيه المسلم ، وينصب له العداوة ، من أجل خلاف فرعي أو شخصي !
إن ما يميز المسلم الحق عن غيره أنه يدور مع الحق حيث دار، ومن أي جهة صدر، وإن النظرة النقدية للذات ، ومراجعة الأخطاء وتصحيحها هي من الأساسيات المهمة التي أمر الله عباده بها ، وعلمهم إيــاهـــا حيث يقول ، عز

من قائل: ((أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَــبْـتـُـم مِّـثْـلَـيْـهَـا قُـلْـتُـمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) [آل عمران:165] .
وإن حياة الصحابة الكرام كانت تطبيقًا عمليًا لهذا المبدأ: نقد للذات ، واعتراف بالخطأ ، وإنصاف للخصوم ، وبعد عن التعصب. وإننا لنعثر في سيرتهم على أمثلة رائعة لا يمكننا أن نقع على ما هو أسمى منها في تاريخ البشرية(1).
ولكن مما يؤسف له أن المسلمين انشغلوا في تفضيل من يعرفون على من لا يعرفون ، واتبعوا الــظــنـون التي لا تغني من الحق شيئًا ، وداروا - ومازالوا - في حلقة مفرغة ، يضخمون أخطاء إخــوانـهــم في الدين ، ويتجاهلون محاسنهم ، في حين يضيعون الأوقات ويشغلون المسلمين في المدح الـعـريـــض لبعض من يتعصبون لهم ، مع أن هذا لا يفيدهم ولا يفيد من يمدحون ، ومع أن المسلم مـطـلوب منه أن لا يغلو في مدح أو ذم ، وأن لا يحيد عن القصد في أمره كله. فقد صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنــه قـــــال: »إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب"(2).
وقال لمن غالى أمامه بالمدح:»ويحك قطعت عنق صاحبك«(3).
وما أحكم كلمة الإمام ابن تيمية في هذا المجال حيث أجاب على ســؤال حــول قـضـيـة تفضيل بعض المشايخ على بعض فقال :
" أمـــا تــرجـيـــح بعض الأئمة والمشايخ على بعض؛مثل من يرجح إمامه الذي تفقه على مذهبه؛ أو يرجح شيخه الذي اقتدى به على غيره ... فهذا باب أكثر الناس يتكلمون فيه بالظن وما تهوى الأنفس ، فإنهم لا يـعـلـمون حقيقة مراتب الأئمة والمشايخ ، ولا يقصدون اتباع الحق المطلق ، بل كل إنـسـان تهوى نفسه أن يرجح متبوعه ، فيرجحه بظن يظنه ، وإن لم يكن معه بــرهــان على ذلك. وقد يفضي ذلك إلى تحاجهم وقتالهم وتفرقهم ، وهذا مما حرم الله ورسوله..."
ثـم قـــال: "فـمـــا دخــل فـي هـذا الباب مما نهى الله عنه ورسوله من التعصب والتفرق والاختلاف والتكلم بغير علم؛ فــإنـه يجب النهي عنه ، فليس لأحد أن يدخل فيما نهى الله عنه ورسوله ، وأما من ترجح عـنـــده فضل إمام على إمام أو شيخ على شيخ بحسب اجتهاده كما تنازع المسلمون: أيما أفضل: الترجيع في الأذان ، أو تركه ؟
أو إفراد الإقامة ، أو إثنائها ؟
وصلاة الفجر بغلس ، أو الإسفار بها ؟
والقنوت في الفجر ، أو تركه ؟
والجهر بالتسمية ، أو المخافتة بها ، أو ترك قراءتها؟ ونحو ذلك. فهذه مسائل الاجتهاد التي تنازع فيها السلف والأئمة ، فكل منهم أقر الآخر على اجتهاده ، من كان فيها أصاب الحق فله أجران ، ومن كان قد اجتهد فأخطأ فله أجر ، وخطؤه مغفور له ..." الفتاوى [20/291-292].

إن حـــال المسلمين اليوم أشد ما تكون حـاجــة إلى الرجوع إلى منهج علمي محدد للنقد والمراجــعــة يـسـتـطيع أن يستنقذ الصالح من كل شيء ويضيفه إلى مثله ، ويستبعد الخطأ ويسقطه من حــســابـه ، ونعني بالعلمية والتحديد أن يكون هذا المنهج غير متأثر بالأهواء والنزوات ، قائمًا على أدلــة ثـابـتة ، بعيدًا عن ادعاء العصمة لأحد بعد الأنبياء ، قادرًا على بيان مكامن الضعف والتقصير، راسمًا الطريق للخروج منها، يتجنب طريق التحريض والصراخ والعويل والبكاء على الأطلال التي يمارسها كثير من الدعاة عن حسن نية .

بذلك يمكننا - بإذن الله - أن نجد لنا مكانًا في أرض الله التي يورثها عباده الصالحين ، وبما عداه فإن النتيجة ليست إلا أصفارا مطروحة من أصفار.

* التحرير *

قال الذهبي في ميزان الاعتدال :

"...فإن ذكرت أحدًا منهم مــن (الأئمة المتبوعين) فاذكره على الإنصاف ، وما يضره ذلك عـنـد الله، ولا عــنــد الـنــاس، إذ إنما يضر الإنسان الكذب والإصرار على كثرة الخطأ والتحري على تدليس الباطل ، فإنه خيانة وجناية ، فالمرء المسلم يطبع على كل شيء إلا الخيانة والكذب ".

الهوامش:

1- كمثال على الاعتراف بالخطأ وعدم تلمس الأعذار راجع قصة المخلفين الثلاثة ، ورواية كعب بن مالك لها في تفسير ابن كثير: سورة التوبة .
وكمثال على عدم التأثر بالهوى الشخصي والإنصاف راجع قصة عمر بن الخطاب مع أبي مريم السلولي قاتل أخيه زيد بن الخطاب في حروب الردة .

2 - صحيح مسلم ، 8/228.

3- صحيح مسلم ، 8/227.

أخبار حول العالم

رجم اليهود بالحجارة

لم يكن حادث مقتل أربعة من الفلسطينيين -قبل أسبوعين من الآن- بعد تعرضهم لحادث من قبل سيارة شحن كبيرة يقودها يـهـودي فـي قطاع غزة المحتل ، هو السبب الرئيسي للاضطرابات التي تشهدها الأراضي المحتلة والـتــي بلغت حدتها حدًا لم تصله منذ 20 عامًا ، ولعل سببًا حقيقيًا لهذه الاضطرابات يكمن فـي الحلقة السياسية المفرغة التي آلت إليها جهود عملية إحلال السلام في المنطقة ، كما أن الاهـتـمــام الضئيل الذي حظيت به القضية الفلسطينية أثناء القمة العربية الطارئة في عمان في الشـهـر الماضي

هو عامل آخر لا يقل عن سابقه أهمية. لقد دفع إحساس شباب المخيمات بتخلي زعمـائـهــم عنهم إلى أخذ المبادرة بأنفسهم .
ينعكس تنامي قوة الإسلام هنا (في الضفة الغربية وغزة) بارتفاع عدد المساجد التي تضاعف عددها تقريبًا ، في الضفة الغربية ، على مدى العشرين سنة الماضية ، وفي قطاع غزة ارتفع عددها من (200) إلى (600).
ولا تعزى ظاهرة زيادة عدد المساجد فقط إلى الارتفاع الذي طرأ على عدد السكان على مدى تلك الفترة ، فقد أخذ الإسلام يحل محل القومية بشكل سريع كقوة توحيد للفلسطينيين الذين أصبحوا يعتقدون أنه الأمل الوحيد لدفعهم باتجاه النصر.
وليس من الصواب شجب أو وقف ظاهرة تزايد عدد الملتزمين بالدين- فالإسلام يبقى واحدًا من بين الأديان العظيمة في العالم - لكن الخطر يكمن في القالب السياسي الذي قد يأتي به ، فالأصولية (والكلام يشمل جميع دول الشرق الأوسط) هي العملاق النائم .
إلا أن السؤال الذي يطرح نفسه:
ماذا لو ظهر الشباب الأصوليون في غزة بأنهم القوة الوحيدة التي تستطيع عمل شيء بطولي في وجه إسرائيل؟ إن مظهرًا كهذا قد يؤجج حماسة الشباب في تلك الدول جميعًا ، سواء منها التي دخلت في سلام مع إسرائيل؛ أو تلك التي التزمت حد الحديث عن الحرب ، ولم تتجاوزه .
التايمز 23 / 12/ 1987
في وسط المخيمات التي تحيط الأسلاك الشائكة نشأت بين الشباب علاقات حميمة لم يعرفوها من قبل أبدًا ، ويلتقي الشباب ذوو الأفكار المتشابهة الذين يمثلون الجيل الثالث من أبناء المخيمات ، من أنحاء قطاع غزة المختلفة وذلك لإجراء اتصالات بين بعضهم. لقد فقدوا الأمل لعدة أسباب:
*لقد فقدوا الأمل لعدم توفر فرص العمل ، فكثيرًا ما ترى الأطباء والمهندسين وأطباء الأسنان والعلماء يمتهنون مهنًا وضيعة ، كالعمل في المطاعم ، أو كنس الطرقات ، أو العمل في المزارع .
*لقد فقدوا الأمل في الدول العربية التي أولت القضية الفلسطينية اهتمامًا ثانويًا في قمة عمان الطارئة.
*لقد فقدوا الأمل في الدول العظمى حيث تجاهل مؤتمر القمة بين أمريكا وروسيا القضية الفلسطينية.
*لقد فقدوا الأمل بمنظمة التحرير الفلسطينية ، فقد أصبح عرفات في نظر شباب المخيمات دبلوماسيًا كثير التجوال عديم القيمة ، خصوصًا بعد المعاملة التي لقيها في مؤتمر عمان ، كما لم يعد لهم أي أمل في المفاوضات من أجل السلام.
*لقد وجدوا بعض الأمل في الإسلام ، نعم إنه المسجد ، كما يقولون ، حيث الجهاد الإسلامي .

لقد أدخلت المظاهرات المصحوبة برشق الحجارة الرعب في قلوب المستوطنين اليهود فقد اضطر (2500) منهم إلى الرحيل عن أماكن إقامتهم متجهين إلى حيث يجدون الأمان ، وناقمين على رجال الأمن لعدم قدرتهم على وضع حد لهذه المظاهرات.
التايمز 22/12/1997
كل التقارير التي نقلت أخبار المظاهرات في أرض فلسطين المحتلة أجمعت على أن المحرك الأساسي الذي كان له الأثر الرئيسي لهذه الحشود في وجه سلطان العدو هو الإسلام ، وأكثر هذه التقارير كانت عباراته مغلفة بالإشفاق والقلق من هذه الظاهرة ، فما يزعج اليهود والذين ظاهروهم وزرعوهم في أرضنا هو عودة الناس في هذه البلاد - وغيرها من بلاد المسلمين - إلى دينهم الذي ارتضاه الله لهم ، واستلهامهم منه معاني الصمود والكفاح ، ولاشيء يقض مضاجعهم غير أن يفهم المسلمون دينهم فهماً صحيحًا ، ولا يعتبروه دين نواح وشكوى وأدعية وأوراد في زوايا معزولة ، ولا يكدر خواطر الأعداء - على كافة أصنافهم - سوى أن يُرمى بتفسيرهم للإسلام في وجوههم.
ولذلك ففي كل تقرير عن تلك الأحداث نرى كيف أن عبارات الاعتراف بالإسلام "كواحد من الأديان العظيمة في العالم"! تغتصب منهم اغتصابًا ، وتفوح منها رائحة الخوف والهلع.
وكذلك نلمح العبارات المملوءة تحريضًا واستعداء وترهيبًا ، والتي يخاطب بها القيمون على المنادين بالإسلام ، والسائرين في طريقه.
لا شيء يكدر خاطر كاتب التقرير إلا أن يظهر "الشباب الأصوليون في غزة بأنهم القوة الوحيدة التي تستطيع عمل شيء بطولي في وجه إسرائيل!" حيث "إن مظهرًا كهذا قد يؤجج حماسة الشباب في تلك الدول جميعًا!!".
وماذا بعد ؟!
عند ذلك يخرج المارد من قمقمه! ويهيج العملاق مخربًا ومثيرًا للفزع والاضطراب في هذه الدول! ويدمر اقتصادها ، وتندثر حضارتها! وتخسر ما بنته الطبقات "المستنيرة" عبر المئة سنة الأخيرة ... الخ .
أرأينا كيف يبدو أعداء الله حريصين على مصلحة الدول الإسلامية؟! وهم ما يفتأون منذ عرفتهم البشرية يزرعون الشر ، ويقتلعون الفضيلة ويبشرون بالإثم والعدوان؟!.
يا قوم:
إن الذي جعلكم تعترفون بالإسلام كواحد من الأديان العظيمة في العالم ، بعد أن أنفقتم كل فترات تاريخكم في حربه وحرب أهله - ولا تزالون - ؛ لهو القادر على أن يبدل "نظرتكم التجزيئية" إلى هذا الدين ، ويجعلكم - أنتم ومن تتولونهم ويتولونكم - ترغمون على الاعتراف بأن الإسلام هو الإسلام ، دينًا يرفض الظلم بجميع أشكاله وصوره ، حيث كان ، وأينما وجد ، وعقيدة عملية تستعصي على تفسيرات أعدائها ، وشروح من يريدون تغييبها في التراب .

أهل مكة أدرى بشعابها (16/11/1987)

أشاد شمعون بيريز وزير خارجية إسرائيل بفكرة المؤتمر الدولي ، وانتقد معارضيه في إسرائيل بسبب مخاوف لا مبرر لها بشأن جهود السلام في الشرق الأوسط.

وقال بيريز - وهو يرد على أسئلة البرلمان الإسرائيلي-:

"العالم العربي يقترح مفاوضات مع إسرائيل تبدأ بمؤتمر دولي" ، وقال: "إنه يجلس الآن ويضحك كيف أن إسرائيل نفسها منخرطة في تشدد متزايد لا داعي له ، ومخاوف لا مبرر لها من أضرار لاوجود لها! وضغوط لا يمكن أن تمارس علينا".

رجال منتظرون

أمل أمة

جمال أحمد رجب

أمة تفيء إلى ربها ، وتعود من بعد طـول غـيـاب فـي ظـلـمـات الـجـاهلية وشرورها ، أمة تستروح نسمات الإيمان ، وقد آن لها أن تقف مرة أخرى بعد عشرات مـن الـسـنـيـن على طريق الأصالة والتوحيد .

أمة ينبض قلبها بدم جديد ، فتعود إليها حياتها متجددة ، بعد أن ظن أعداؤها أنهم قد قضوا عليها بالسم الزعاف ، وما دروا أنهم قد قتلوا الحياة واغتالوا الوجود يوم أن أوقفوا ريادتها وأنهكوا حياتها .

وهاهم أعداء الأمة اليوم يصرخون . . فمن ينجيهم من عذاب أليم ؟!! أمة تعود إلى ذاتها التي ضيعتها ، وإلى رسالتها التي هانت عليها ، أمة تعود إلى روحها . . إلى قرآنها. . إلى سنة نبيها .. إلى شريعتها .. إلى دستور حياتها .

وطريق العودة طويل طويل . .

طويل أولاً في وقته وزمنه ، فهو طريق التأسيس المنهجي وليس الإصلاح والترقيع العفوي ((أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ . .)).

وطويل ثانيًا في تضحياته ومشقاته ، فلن يترك الباطل الحق في يسر وسهولة ، ولن يرفع أعداء الله راياتهم البيضاء إلا بعد معارك طوال .

يقول ربنا :((»يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وإن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ واللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ. .))« ، فهنا أمران من عداد التضحيات والمشقات:

الأول: أنه ينبغي على رجال الأمة أن يحملوا الأمانة كما أبلغهم الله إياها ، ويبلغوها العباد كما أراد الله لا كما تهوى الأنفس وتزينه الشياطين ، وهذه تضحية ومشقه أولى.
الثاني: يفهم من قوله تعالى ((واللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)) [المائدة:8] أن البلاء واقع بمجرد إبلاغ الحق إلى الخلق ، وهذه تضحية ومشقة ثانية ، يقول ربنا: ((لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وأَنفُسِكُمْ ولَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ومِنَ الَذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً . .)) وعلى هذا الطريق - طريق العودة - يقف رجال يحملون عقيدة الأئمة وسلف الأمة ، فعليها يأتلفون ويجتمعون ، ومن دونها يفارقون ، يتربون على عظائم الأمور ومكارم الأخلاق ، صفوفهم منتظمة ، حريصون على الوحدة والائتلاف وليس الفرقة والخلاف ، هممهم عالية ، صبر على المحن ، وبعد عن الفتن ، عقولهم متزنة ، جنوبهم لينة ، أخطاؤهم معدودة ، إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ، دامعة أعينهم ، حزينة قلوبهم ، يبكون يوماً قصيًرا لغد طويل ، لا يحزنون على ما فاتهم من الدنيا ، ولا يفرحون بما أتاهم منها ، ((الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)) أنفاسهم طويلة مثل طول طريقهم . . وآراءهم حكيمة على مثل ما يواجهون . . واعون لواقعهم الذي يحيونه فهم له مستبينون لا يخدعهم معسول قول جاهلية عصرهم عن حقيقة كيدها وعنادها وتنكرها لطريق الله ، واجتيالها للعباد - كل العباد - عن مصدر عزهم وسعادتهم ألا وهو دينهم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟!!
فهم ممتثلون قوله تعالى: ((وكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ ولِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ المُجْرِمِينَ)) وهؤلاء هم الرجال المنتظرون .
هم الصف الأول ، هم النخبة الموجهة ، هم الصفوة المنتقاة ، هم حراس الأمة وقادتها وعقولها ، رجال هم عين الأمة وضميرها ، رجال يذودون عن الأمة ، ويدافعون عنها ، ويدفعون الأعداء ، رجال يوجهون الأمة ، وبهم تسترشد الأمة طريقها ، رجال تلوذ بهم الأمة - بعد الله - في مدلهمات الأمور وجسام المواجهات ، رجال تناط بهم أمانة حمل هذا الدين العظيم ، وإبلاغه للناس والتمكين به في الأرض ((وعَدَ اللَّهُ الَذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ولَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَذِي ارْتَضَى لَهُمْ ولَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً)) ، رجال تحتاجهم الأمة في كل ظروف تاريخها الطويل ، وحاجتها إليهم اليوم أشد ، إنهم رجال المواقف ...
غير أن المنهجية الأصولية التي تلتزم بها هذه الأمة ورجالها تقتضي أن نعرض صفحة من علمها المدون يقتضيه السياق:
أولا: قوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلَى اللَّهِ والرَّسُولِ...)) اتفق أهل السنة على أن العلماء من أولى الأمر وطاعتهم معطوفة على طاعة الله

ورسوله ، وبداهة فإن هؤلاء العلماء في زماننا هم الذين يطيعون الله ورسوله ، ويتقون الله مع قيامهم بالحق لا يخشون في الله لومة لائم ، ولا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلاً ، ولذا لا يجوز أهل السنة لعلمائهم أن يغيروا دين الله فيأمرون بما شاؤا وينهون عما شاؤا.مما تقدم وجب على الأمة طاعة علمائها .

ثانيًا: إننا نحيا عصر التخصص العلمي الدقيق ، ولهذا كان علينا أن نصبغ الحركة الإسلامية بصبغة التخصصية ، فهذا يتخصص بتاريخ الأمة الإسلامية على مر القرون يعلم حركته ، ويدرك تطوراته ومراحله ، ويفهم مده وجزره ، وآخر يتخصص بعلم الرجال الذين تصدوا القيادة والتوجيه والتأثير في هذه الأمة في القرون الأخيرة - مثلاً - فيعلم نشأتهم وتربيتهم ومنطلقاتهم وأفكارهم ومخططاتهم وأهدافهم التي سعوا لتحقيقها ولتنفيذها في هذه الأمة ، وثالث يتخصص بعلم التفسير الشرعي يفهم أصوله ويعلم مدلولات النصوص ومراميها وأسباب نزولها والمحكم منها والمتشابه والخاص والعام والمطلق والمقيد إلى آخر ذلك .. ورابع يتخصص بعلم الاقتصاد . . وخامس بعلم الدعوة والتأثير والتربية . . . إلى آخر تلك التخصصات وهذه العلوم والفنون التي تحتاجها الأمة متمثلة في رجال أكفاء ، يوجهون ويصنعون حضارتها .

إن ميزات الرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم- أنه قد ربى جيلاً كاملاً قادرًا على أن يتبوأ مكانة في الصدارة لهذه الأمة ، وحينما رحل الرسول الكريم إلى ربه لم تنهزم الأمة ولم تندثر بل علت وانتشرت وغزت الأرض لتكون كلمة الله هي العليا .

وهانحن نقول مشددين عليها :

أعطني رجالاً أصنع لك حضارة..

-يتبع-

الآثار النفسية للفيديو والتلفزيون

ليس بمقدور أحد أن ينكر ما للتلفزيون والفيديو من الآثار السيئة في النفس الإنسانية ، ولو أنصف كل مشاهد لأعلن عما ينتابه من إحساس لدى المشاهدة ، وليس هناك سوى الموتى لا تأثير للتلفزيون فيهم أمامه لأنهم موتى بلا نفوس .

ويقول خبراء شركة "جنرال إليكتريك" إنه بعد نصف دقيقة من المشاهدة يبدو المخ وكأنه نائم ، وهنا وجه الخطورة بالنسبة للتلفزيون ، فإذا اعتاد المشاهد الاستسلام للمشاهدة فإنه يظل مستسلمًا(1) ، وهنا مكمن الخطر فالمخ شبه نائم وليس بمقدوره أن يدرأ عن النفس ما يوجه إليها ويصبح

عاجزًا عن المقاومة فتصب المعلومات فيه صبًا لتبدو الآثار الجانبية في النفس والعقل .
ومن المؤكد أن هذه الآثار لا تأتي مباشرة عقب صب المعلومات وتغلغلها في النفس ، وإنما تظهر بعد حين نتيجة تضافر برامج أخرى تعمل على تراكم الآثار التي تأخذ بدورها من جديد بالاندفاع من الداخل نحو الخارج ، على صورة سلوك حركي يترجم التفاعل اللاإرادي المديد الذي يأخذ سبيله إلى النفس على شكل مفاهيم امتزجت مع الشخصية فأكسبتها بعضًا من ملامحها وأهدافها ولذا فإن تأخر ظهور هذه النتائج يوهم الكثيرين ويدفعهم للإقلال من الأخطار الناجمة عن ذلك ، بل إن العامة يرفضون هذا الرأي ، أو على الأقل فإنهم لا يعتدون به.
والتلفزيون يثير كثيرًا من العمليات العقلية الشعورية واللاشعورية ، فهو يثير الخيال أو الوهم ، فيعيش الإنسان مع خيالاته المستمدة مما يراه على شاشة التلفزيون أو الفيديو ، كما يثير فيه روح التقمص أو التوحد مع من يرى من شخصيات يعجب بها ، أو آراء أو أفعال ، كما تجعله يسقط آماله ، وآلامه وعقده ، ومخاوفه النفسية على ما يشاهد من مناظر وشخصيات وأحداث ، ويشجع فيه أحلام اليقظة ، وفيها يهرب الإنسان من الواقع المؤلم ليحقق رغباته المكبوتة التي عجز عن تحقيقها في عالم الحقيقة ، وفي ذلك نوع من التصريف. وكذلك يقال أنه يشجع السلبية حيث أن المشاهدة لا تتطلب أي جهد من قبل المشاهد ، كذلك فإنها تقدم الأفكار جاهزة ، وقد يتعود على ذلك فيتكاسل حتى عن مجرد التفكير أو النقد أو التمحيص فيما يرى ويسمع ، يضاف إلى ذلك أنه يرى - في حالة التلفزيون خاصة- أشياء مفروضة عليه ليس له دخل في تصميم برامجها أو وضعها(2).

التلفزيون وأحلام اليقظة:

يمكننا اعتبار مشاهدة التلفزيون نوعًا من أحلام اليقظة ، وهى أحلام لا تعود إلينا بل لشخص آخر في مكان بعيد مع العلم أنها تعرض على شاشة داخل عقولنا. فالعيون الثابتة المحدقة في الشاشة الصغيرة تكاد تكون الحاسة الوحيدة العاملة من حواسنا ، ومع ذلك فإنها تتجاهل الصور وهي تصب داخل مناطق اللاوعي في عقولنا ، وقد بينت المئات من الدراسات العلاقة المباشرة بين حركة العين والتفكير. فعملية جمع المعلومات بالنظر تتطلب أن يكون المشاهد يقظًا نشطًا ، لا أن يتقبل كل ما يجري أمامه بطريقة سلبية ، وهناك دراسات تثبت أنه عندما تكون العينان ساكنتين أو محدقتين بطريقة مخيفة فالتفكير يكون مضمحلاً تمامًا ، كما يقول جيري ماندر (3) فربما دخلنا في العصر الذي تحشى فيه المعلومات مباشرة في العقل الباطن عند الجميع.
وأكثر المشاهدين يشعرون بمثل هذه الأحلام التي يبدو أنها تجمح بالخيال ، فتتوزع الصور المتركبة من المشاهدات المتتالية ذات الموضوع الواحد أو

المتقارب ، بل باستطاعة هذا الخيال أن يؤاخي بين الصور المتناقضة ليؤلف بينها ، ويجعل منها مادة تصلح لإطلاق أحلام اليقظة على غاربها ، بعيدًا عن الواقع وهروبًا من المسؤوليات *

الهوامش:

1 - محسن محمد: الإنسان حيوان تلفزيوني ص 208 .
2- الدكتور عبد الرحمن العيسوي: الآثار النفسية والاجتماعية للتلفزيون العربي ، ص 33-34 .
3- جيري ماندر: أربع مناقشات لإلغاء التلفزيون ، ص 168.
* فقرة من كتاب: الأسرة المسلمة أمام الفيديو والتلفزيون ، مروان كجك .

شؤون العالم الإسلامي ومشكلاته

التتار في شبه جزيرة القرم

يرجع تاريخ تواجد الـتـتـار في شبه جزيرة القرم إلى أيام العصر الذهبي لدولة المغول التتار واحتلالهم للجزيرة في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي وما تبع ذلك من ظهور كيان مستقل في مطلع العقد الرابع من القرن الخامس عشر لما اصطلح عليه فيما بعد بـ"تتار شبه جزيرة القرم"

لمحة تاريخية:

دخل الإسلام شبه جزيـرة الـقـرم في أواخـر القرن الثالث عشر ، وعم انتشاره أرجاءها مع مطلع القرن الرابع عشر الميلادي ، وتتار الـقـرم كـلـهـم مسلمون سنة ويتكلمون لغة محلية شديدة التأثر باللغة التركية ، وينحدر البعض منهم من أصـول تـركـيـة جـاءت عـن طـريق الـقـبـائـل الـتـركية التي استوطنت الجزيرة في عهود مبكرة قبل غزو المغول لها. وحكمت الجزيرة منذ نـشـوء الـدولـة الـمستقلة فيها سلالة (Girey) (ربما تكون خيري والله أعلم) وازدهرت حضارة دولة التتار هذه واتسعت رقعتها حتى شملت المناطق المتاخمة للسهول المحاذية للبحر الأسود ، وبعد وصول الفتوحات العثمانية إلى تخوم المستعمرات الرومانية على ضفاف البحر الأسود بثلاثة أعوام وبالتحديد عام 1478م قبل مسلموا التتار بسيادة الخلافة العثمانية عليهم إلا أن الجزيرة بقيت تتمتع باستقلالية صنع قراراتها المحلية حتى حين. وفي القرنين السادس والسابع عشر الميلاديين كان لمسلمي القرم شأن آخر فقد قويت دولتهم وعظم شأنهم وأصبحت لهم القدرة على حشد الآلاف من الفرسان وعدد ضخم من المقاتلين فشكلوا بذلك قوة أقليمية ضاربة يحسب لها حسابها. لقد أقلق وضع المسلمين الجديد هذا بال جيرانهم لاسيما القياصرة منهم وبدأوا يعدون لهم الكمائن والفخاخ للإيقاع بهم وإجهاض نهضتهم هذه التي أقضت مضاجعهم فلم يهدأ لهم بال ولم يقر لهم قرار وهم

يرون هذه الدولة المسلمة الفتية التي باتت تشكل شوكة في أعناقهم وعامل استنهاض مكين لبقية الشعوب الإسلامية المبتلاة بهيمنتهم وهمجيتهم. وهكذا بدأت أعمال التحرش والاستفزاز تظهر في الأفق شيئًا فشيئًا بين المسلمين وبين إمارة موسكو المتنامية القوة ثم ما لبث أن تحولت هذه الاستفزازات إلى مواجهة عسكرية شاملة وظهر المسلمون على أعدائهم في بادئ الأمر ونجحوا في الإغارة على موسكو ذاتها عدة مرات ووصلوا إلى أسوارها وحاصروها في عام 1571 م بل وفرضوا الجزية على أمرائها ثم امتدت غاراتهم المستمرة والمنتظمة لتشمل فيما بعد بقاع أخرى إلى الشمال من موسكو ، ووصلوا حتى حدود بولندا غربًا. إلا أن الكفة ومع مطلع النصف الثاني من القرن السابع عشر أخذت ترجح لصالح القياصرة الذين حققوا بعض الانتصارات التي أعادت إليهم شيئًا من الثقة بالنفس فكانت حافزًا لهم للثأر لهزائمهم المتكررة. وعلى الرغم من هزيمتهم النكراء على يد مسلمي القرم وحلفائهم العثمانيين في عام 1711م إلا أنهم عادوا وغزوا الجزيرة بعد سلسلة طويلة من الحروب دارت بينهم وبين الدولة العثمانية في الفترة ما بين 1735-1739م و1768-1774م والتي اضطر العثمانيون في نهايتها إلى التخلي عن سيادتهم على السواحل الشمالية للبحر الأسود وأعقب ذلك انفصال دولة القرم عن السيادة العثمانية وإعلانها دولة مستقلة.

وفي حقيقة الأمر فإن القياصرة لم يمنحوا الجزيرة استقلالها البتة بل على العكس من ذلك فقد جعلوا منها ولاية جديدة تدور في فلكهم ونصبوا عليها حكامًا ينفذون لهم رغباتهم التي يملونها عليهم كما يفعلون اليوم في أفغانستان ، ولم تكن هذه المرحلة من تاريخ الجزيرة تمثل غاية أطماع القياصرة فيها ، بل كانت جسرًا يوصلهم إلى هدفهم الأسمى وهو ابتلاع الجزيرة وضمها بشكل نهائي. وجاء مطلب ملكة القياصرة "كاترين" في 1783م بضم الجزيرة مجسدًا لمخاوف المسلمين وتوقعاتهم القديمة والتي نشأت منذ تخلي العثمانيين عن الجزيرة ، مما حدا بالآلاف منهم إلى ترك مدنهم وقراهم واللجوء إلى حمى الدولة العثمانية .

وبالفعل فقد حقق القياصرة حلمهم بعد فترة قصيرة واحتلوا الجزيرة وباشروا على الفور في تنفيذ سياساتهم في طمس هوية وتاريخ المنطقة ، فشرعوا بإلغاء الأسماء المحلية للمدن والقرى واستبدلوها فيما بعد بأخرى يونانية.

وكترسيخ لهذا المبدأ ومنذ مطلع عام 1784م أخذوا بمصادرة جميع الأراضي ذات الأهمية الاستراتيجية والزراعية من أصحابها الشرعيين وقاموا بتوزيعها فيما بعد على كبار المسؤولين ومن ثم على المستوطنين الجدد الذين استقدموا بأعداد كبيرة من مناطق مختلفة في عام 1790 م ، ومن جهة أخرى فلقد كانت أحداث عام 1829م وما تضمنته من اعتراف الدولة العثمانية بسيادة القياصرة على جزيرة القرم بمثابة قاصمة الظهر التي حرمت مسلمي الجزيرة من آخر أمل لهم في استعادة استقلالهم الأمر الذي دفعهم للقيام

بهجرات جماعية ضخمة في تلك الفترة تلتها هجرات أخرى أضخم في الفترة ما بين 1860-1870م و1891-1902م ترك فيها مئات من العوائل مدنهم وقراهم في موطنهم الأم واتجهوا إلى حياض الدولة العثمانية .
ولم يكن المسلمون الذين آثروا البقاء في موطنهم بأوفر حظًا من إخوانهم الذين هاجروا بدينهم ، فقد وقعوا ضحية جريمة نكراء نفذها القياصرة الصليبيون في الفترة ما بين 1860-1863م أرغموا فيها على هجر مدنهم وقراهم والرحيل إلى أواسط آسيا وبالتحديد إلى ما يعرف اليوم بجمهورية كازاخستان. ولا أدل على خبث مرامي ذلك المخطط الإجرامي الذي نفذ في حقهم مما ذكرته إحصائيات عام 1897م من أن عدد المسلمين الذين تبقوا هناك بات لا يشكل سوى نسبة ضئيلة لا تتجاوز ثلث مجموع سكان الجزيرة ، وأن غالبيتهم من الفلاحين والأميين ، في حين بلغت نسبة المستوطنين الجدد من الروس والأوكرانيين 45 % . وفي عشية قيام الثورة الشيوعية كانت نسبة 40% من الفلاحين المسلمين مازالت لا تملك أرضًا تزرعها وتقتات منها ، هذا بالإضافة إلى حرمانهم من أبسط حقوقهم الإنسانية.

ما بعد الثورة الشيوعية :

في أعقاب الثورة الشيوعية (17/10/1917) سادت الحرب الأهلية وحالة الفوضى أرجاء روسيا مما تسبب في غياب السلطة المركزية وانكسار الطوق الحديدي الذي كان مفروضًا من قبل القياصرة على شعوب المنطقة التي كانت ترزح تحت نير حكمهم ، ورافق تنامي قوة الشيوعيين واستقرار الأمور لصالحهم زيادة المخاوف لدى مسلمي القرم حيال مستقبلهم الذي بات يكتنفه الغموض أكثر من أي وقت مضى بعد سلسلة المجازر الجماعية وحمامات الدم التي ارتكبتها أيادي البلاشفة الحمراء في حق شعوبهم من أجل الوصول إلى دفة الحكم ، فكيف بهم وهم المسلمون حملة تهمة الإسلام الخالدة وكفى بها من تهمة .
وسط هذه المخاوف وحالة الفوضى التي عمت البلاد نجح أهالي القرم في إنشاء حكومة مستقلة لهم في منتصف شهر تشرين الثاني من العام ذاته ، إلا أن الوضع الجديد هذا لم يلق استحسانًا لدى الشيوعيين فأرسلوا إليهم إنذارًا شديد اللهجة طالبوا فيه أفراد الجيش بتسليم أنفسهم وإلقاء أسلحتهم خلال فترة أربع وعشرين ساعة من صدور الإنذار. وما هي إلا ساعات قليلة حتى اكتسحت القوات الشيوعية البرية والبحرية شبه الجزيرة واحتلتها بأكملها وحلت حكومتها المستقلة في 25 / 1 1918م أي بعد ثلاثة أشهر فقط من قيامها ، وتعتبر هذه الفترة الوجيزة هي الفترة الوحيدة التي نال خلالها أهالي القرم استقلالهم منذ أن اكتسحت جيوش القياصرة بلادهم في عام 1783م كما سبق .

وشرع المسلمون بالهرب من الجزيرة ، واعتصمت أعداد كبيرة منهم في الجبال خشية المذابح التي عرف الشيوعيون بها. وبالفعل ففي شهري شباط وآذار من العام نفسه نفذ الشيوعيون مجازر رهيبة في عدد من مدن المسلمين راح ضحيتها الآلاف من الأبرياء ، وتكاتف المسلمون بقوة في وجه هذا المد الهمجي الأحمر. وذكر شهود عيان في شهر أيار من نفس العام أنهم عثروا في مدينة "سمفر بولو" كبرى مدن الجزيرة على قبور جماعية يحوي الواحد منها ما لا يقل عن 1500 شخص .
وفي أعقاب ذلك (6/3/1918م) ، وكمحاولة لتهدئة الأوضاع ، بادر البلاشفة بالإعلان عن تشكيل ما أسموه بحكومة محلية وحاولوا ، ولكن بدون أي جدوى إسناد بعض المناصب الحكومية لشخصيات مسلمة مرموقة ، إلا أن الأمر لم يدم طويلاً على ذلك فبعد مرور عامين فقط على تشكيل تلك الحكومة بدأ الشيوعيون بسحب المناصب الحكومية المهمة من أيدي الأهالي وأسندوها إلى رفاقهم ، وهذا ولاشك هو أبسط معاني الحرية لديهم ، وما أحداث جمهورية كازخستان المسلمة عنا ببعيدة .
إلا أن لينين أدرك بعد فترة قصيرة من توليه دفة الحكم أهمية منح الأقليات العرقية شيئًا من المكاسب في هذه المرحلة الفتية من عمر الثورة إذا ما هو قرر الإبقاء على إمبراطورية أجداده ، فقرر إعطاء نوع من الحكم الذاتي لبعض المناطق الحساسة كتلك التي يشكل فيها المسلمون نسبة عالية وأطلق بعض الحريات وسمح بتدريس اللغات المحلية كما أنه أفسح بعض المجال أمام الأقليات للمشاركة في صنع القرارات المحلية في الوقت الذي احتفظت فيه الحكومة المركزية في موسكو لنفسها بالهيمنة المطلقة على الوزارات والمؤسسات الرئيسية وتعيين الوزراء وكبار مسؤولي الأقاليم ، الأمر الذي لم يلق قبولاً لدى زعماء المسلمين مما دفعهم إلى المطالبة بمنحهم استقلالية حقة تكفل لهم صنع قرارهم السياسي المستقل ، إلا أنهم ومع ذلك لم يجنوا من وراء مطالبهم تلك سوى الوعود البراقة التي بقيت حبراً على ورق .
ولا شك أن لينين لم يكن ليلجأ إلى مثل هذا النوع من التعامل إلا لكسب تلك الأقليات إلى جانبه حينًا من الدهر أو على الأقل ضمان حيادهم ، وهذا فن في التعامل مع الشعوب ذكي ما زال عليه كثير من طغاة اليوم ، إلا أنه ومع كل أسف لم يزل هناك كثير من الطيبين من الذين لا يستقون من التاريخ عبرًا ومن الماضي دروسًا ممن تنطلي عليهم هذه الأحابيل فتراهم يحسنون الظن بكل وجه جديد يطل عليهم بل وتجدهم وفي طليعة المؤيدين له والمبررين لبعض نواقصه فيكونون بذلك أداته الأولى التي يثبت بها نفسه حتى إذا ما تحقق له ذلك كانوا هم أول ضحاياه .
ومن جهة أخرى كان للسياسات التي نفذها البلاشفة منذ اليوم الأول لاستيلائهم على السلطة بالغ الأثر على سير الحياة في الجزيرة فعلى سبيل

المثال أدت سياسة مصادرة الأراضي الزراعية وتهجير الفلاحين وهيمنة الدولة على مساحات شاسعة من المزارع وصلت إلى 50% من مجموع الأراضي إلى هبوط مستوى الإنتاج الزراعي بشكل رهيب لم يسبق أن عرفت الجزيرة له مثيلاً مما أدى إلى حدوث مجاعة مروعة أودت بحياة عشرات الألوف من السكان ، فقد وصل معدل الوفيات في بعض المدن إلى 50% في حين انخفض عدد سكان الجزيرة بمعدل 21% وقد استغل البلاشفة أحداث المجاعة أبشع استغلال كوسيلة لتركيع شعب الجزيرة لهم ، وقد ظهر ذلك في أوضح صورة عند منعهم لوصول إمدادات الحبوب التي بعثت بها تركيا إلى المتضررين حيث تم تحويلها إلى مناطق أخرى ، وسادت الفوضى أنحاء الجزيرة وكثرت حوادث السرقة وباتت أكثر من أن تحصى لاسيما من قبل جنود الجيش الأحمر الذين أطلق لهم العنان ليعيثوا كما يشاؤون. وأدى غياب العقاقير الطبية وتردي الأحوال الصحية إلى تفشي الأمراض التي فتكت بالإنسان كما فتكت بالحيوان.
ونشرت جريدة (أزفستيا) الروسية الصادرة في 15/7/1922 تقريرًا للرفيق كالينين جاء فيه أن عدد متضرري المجاعة في شهر شباط بلغ(302.000) مات منهم (14.413) وفي شهر آذار ارتفع عددهم ليصل إلى (379.000) مات منهم (19.902) وفي شهر نيسان (377.000) مات منهم (12.754) كما ذكر التقرير أن أكل لحوم البشر لم يكن أمرًا غير مألوف .
وبعد مرور ما يقرب من أربعة أعوام على هلاك لينين ومجيء ستالين إلى السلطة (كانون ثاني1928) دخلت الجزيرة طورًا جديدًا من أطوار حياتها السياسية الحافلة بالمآسي ، ففي تلك السنة أقدم ستالين على حملات تطهير وإبادة جماعية شعواء ردت إلى الأذهان المذابح التي اقترفها المغول آّبان غزوهم لعاصمة الخلافة العباسية بغداد ، ولم تقتصر تلك الحملات على شبه جزيرة القرم فقط بل امتدت لتشمل سائر الجمهوريات المسلمة الرازحة تحت نير حكمه البغيض. ونفذت أحكام الإعدام بأعداد كبيرة من رجال الدين وأغلقت المساجد والمدارس الدينية وحوّل كثير منها إلى نواد رياضية واصطبلات ، كما شرعوا بهدم المساجد فلم يبق من (1558) مسجدًا إلا قليل يعد على الأصابع ، وكمحاولة يائسة منهم لفصل المسلمين عن دينهم وتاريخهم العريق قاموا باستبدال الحروف العربية باللاتينية وتزامنت هذه الحملة الخبيثة مع حملة أتاتورك المشابهة في تركيا .
كما أرغم ما بين 30 - 40 ألف من فلاحي القرم على ترك مزارعهم والرحيل إلى مناطق الأورال وسيبيريا الأمر الذي أدى فيما بعد إلى وقوع مجاعة أخرى في عام 1931 كنتيجة لنقص المحاصيل الزراعية راح ضحيتها أعداد ضخمة من السكان في الوقت الذي كانت تقوم فيه الحكومة الشيوعية بجمع وتصدير ما تنتجه الجزيرة من محاصيل من أجل الحصول على العملة الأجنبية وذلك لدفع عجلة الثورة الصناعية في البلاد على حد زعمهم.

عملية التهجير ورحلة الهلاك:

في أواخر العقد الثالث من هذا القرن ازدادت حدة التوترات بين روسيا الشيوعية وألمانيا الهتلرية التي باتت جيوشها المكتسحة على أبواب روسيا ، وظهر شبح الحرب في الأفق وبدأت الشكوك والمخاوف تساور ستالين حيال ولاء بعض الأقليات العرقية القابعة تحت حكمه لاسيما تلك التي تتمركز في الأقاليم الغربية مما يعرف اليوم بالاتحاد السوفييتي كشبه جزيرة القرم وشمال القوقاز والتي تمثل بحكم موقعها الاستراتيجي الخط الدفاعي الأول في وجه الجيوش الألمانية المتقدمة .
ومنذ ذلك الحين وستالين يهم بالتخلص من سكان هذه الأقاليم الحساسة وذلك بنفيهم إلى الأقاليم الداخلية من روسيا وأواسط آسيا. إلا أن التقدم السريع الذي حققه الألمان على جبهات القتال باتجاه روسيا حال دون تنفيذ ذلك المخطط. ومع اكتساح الألمان لشبه جزيرة القرم في أواخر السنة الثانية للحرب (تشرين الثاني 1941) انخرط عدة مئات من الآلاف من أهالي الجزيرة - بما فيهم الروس - في صفوف الجيوش الغازية وقاتلت جنبًا إلى جنب ضد الجيش الأحمر ، وكان من بين أولئك عدة آلاف من المسلمين التتار. وما من أدنى شك أن كراهية المسلمين المقيتة للشيوعيين وأملهم في تطهير جزيرتهم منهم كان الحافز الوحيد وراء تواطئهم مع الألمان .
ومن جهة أخرى فقد قاتلت أعداد كبيرة من مسلمي الجزيرة في صفوف الجيش الأحمر ذودًا - في ظنهم - عن حياض الوطن ، وأملاً في أن يلقى ذلك تقديرًا وإجلالاً من الرفاق الحمر. وتحدثت الصحف الروسية في حينها عن البطولات النادرة التي سطرها المسلمون التتار ضد الجيوش النازية ، كما حاز عدد منهم على أوسمة البطولة التي لا تمنح في العادة إلا في الحالات النادرة .
ومع بداية الهجوم الروسي المعاكس في 8 / 4 /1944 وبداية تراجع الألمان ومن ثم إخلائهم لمعظم أرجاء الجزيرة شرع الشيوعيون وعلى الفور بتنفيذ عقوبات الإعدام بحق كل من اشتبه به التعاون مع الألمان ، وتحدثت التقارير في حينها عن المجازر الجماعية التي أقيمت في الطرقات والتي راح ضحيتها ألوف من المسلمين ، ولم يشفع لبعضهم قتالهم في صفوف الجيش الأحمر. كما شنت الشرطة السوفيتية السرية غارات ليلية مكثفة ومتكررة على منازل المسلمين التتار أجبرتهم فيها وتحت وطأة السلاح على ترك منازلهم ومدنهم استعدادًا لمغادرة المنطقة بأسرها .
وعومل المسلمون معاملة وضيعة لا تليق ببني الإنسان. فقد كشفت وثيقة سرية -كشفت فيما بعد-محتوى لرسالة كتبت في عام 1968 من قبل أحد الروس ممن كانت تربطه صداقة ببعض مسلمي الجزيرة جاء فيها: إن بعض العوائل كانت قد أعطيت مهلة خمس عشر دقيقة لأخذ أمتعتها والاستعداد

للرحلة الطويلة!! في حين لم يعط آخرون سوى خمس دقائق لمجرد التجمع قبل السفر كما أنهم منعوا من اصطحاب أي من ممتلكاتهم حتى ظن كثير منهم أنهم أخذوا ليقتلوا!!..
ولنكمل قراءة ما جاء في هذه الرسالة من أمور تشيب لها الولدان ، تمضي الرسالة فتقول:
" كلا إنهم لم يؤخذوا ليقتلوا ، لقد كانت رحلة الموت البطيء في عربات المواشي المكتظة بالناس والشبيهة بخزانات نقل الغاز ، استغرقت الرحلة التي أخذت طريقها عبر سهول كازاخستان ذات المناخ الصيفي المحرق من ثلاثة إلى أربعة أسابيع ، لم يستثن أحد من رحلة العذاب هذه حتى المرضى والعجزة ، أما البقية الباقية من الذين كانوا في جبهات القتال فإنهم عادوا بعد انتهاء الحرب ليجدوا عمليات التهجير بانتظارهم وليلحقوا بأزواجهم وأطفالهم الذين (شحنوا) قبلهم.
لقد حصد الموت العجزة والضعاف ، حتى الفتية لم تحتمل أجسامهم ذلك العناء ، لقد حصدهم الجوع والاختناق والنتانة ، ومع طول أمد الرحلة أخذت الجثث بالتفسخ وسط تلك العربات المختنقة بالزحام ، ولم يسمح للمهاجرين بدفن موتاهم أثناء الوقفات القصيرة التي كان يتوقفها القطار للتزود بالماء والطعام ، بل كان عليهم تركها بجانب السكة".
يا لها من مبادئ سامية نبيلة تلك التي أتتنا بها الشيوعية ، ويا لها من دعاوٍ وشعارات صادقة تلك التي يعد بها المناضلون الشيوعيون شعوبهم وأتباعهم ، إن نتانة خلقهم الذي جبلوا عليه لتفوح والله من بين أسطر هذه الرسالة المقتضبة التي لم تكشف لنا سوى عن نقطة صغيرة وسط محيط متلاطم الأمواج.
لقد تمخضت عملية التهجير تلك عن شحن ما يربو على (250)ألف من مسلمي القرم إلى مناطق الأورال ، سيبريا ، كازاخستان ، وبقية جمهوريات أواسط آسيا التي تبعد آلاف الأميال عن مواطن سكناهم .
وفي كازخستان لم تكتف السلطات الشيوعية المحلية بما لقيه المسلمون من عناء وضنك في رحلتهم تلك بل زادت على ذلك بأن ألّبت السكان المحليين ضدهم حيث استقبلوهم بشتى صنوف الإهانات التي تراوحت بين نعتهم بنعوت تمس كرامتهم ، ورشقهم في بعض الأحيان بالحجارة ، وتفشت في صفوف المهجرين الأمراض المختلفة كالملاريا والمغص الكلوي كنتيجة لتلوث مياه البرك التي كانت تمثل مصدر المياه الوحيد لهم ، وبسبب رداءة الأغذية وشحتها ، ولم يطرأ أي تحسن على ظروفهم الصحية إلا بعد دخول عام 1945 م حينما تمكنوا من حصد محاصيلهم التي زرعوها بأنفسهم. كما عانى المسلمون هناك كثيرًا من صرامة القيود التي فرضت على تنقلاتهم في مناطق سكناهم الجديدة فلم يعد أحدهم قادرًا على تجاوز حدود مدينته أو قريته. وسنت لمخالفي هذه القوانين عقوبات صارمة وصلت في بعض الأحيان

إلى السجن مدة 25 سنة مع الأشغال الشاقة في معسكرات العمل وأدت حالة الفقر المدقع التي عايشها المسلمون التتار إلى حرمان أبنائهم من حق الدراسة في المعاهد العليا.

وضعهم الحالي :

استمرت الظروف القاسية التي ألمت بالمسلمين من أهالي القرم منذ اليوم الذي شردوا فيه من ديارهم ، حقبة من الزمن امتدت إلى ما بعد هلاك ستالين في عام 1953م ، إلا أن هلاك هذا الأخير فتح الباب أمام خليفته خروشوف للتحدث عن جرائمه. ففي حديثه المشهور - الذي لم ينشر في حينه - أمام المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي الذي عقد في شهر شباط من عام 1956 م تطرق خروشوف إلى جرائم تهجير الشعوب التي أعدها ونفذها سلفه ستالين ، وكان مما ذكره في حديثه أن تهمة تواطؤ التتار مع الألمان كانت تهمة خاطئة!!

ومع أنه هناك من يقول بأن خروشوف أعاد للتتار كثيرًا من حقوقهم التي سلبهم إياها سلفه كرفع القيود التي كانت مفروضة مثلاً على تنقلاتهم بناء على قرار نشر في28/4/1956م إلا أن هذا القرار وغيره من القرارات الأخرى لم يرد لمسلمي القرم حقهم الشرعي في استرداد أملاكهم التي أخذت منهم عنوة كما أنه لم يعد لهم حقهم المشروع في العودة والاستيطان في موطنهم الأم على الرغم من تبرئتهم من تهمة "خيانة الوطن" في أيلول 1967م ، في الوقت الذي نالت فيه الأقليات الأخرى موافقة السلطة بالرجوع إلى مواطنها الأصلية منذ عام 1957 م والتي كانت قد هجرت منها تحت نفس الذريعة .

ومنذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا ومسلمو القرم ما فتئوا يسعون للحصول على موافقة السلطات للعودة إلى جزيرتهم ، فتارة عن طريق تقديم طلباتهم للمحافل السياسية للحزب ، وتارة أخرى بالمظاهرات والمسيرات التي نادرًا ما تحدث في العاصمة موسكو كما حصل منذ فترة قصيرة من الآن عندما تجمع ما يقرب من 300 منهم في ما يسمى بالميدان الأحمر واعتصموا لمدة 27 ساعة مطالبين بتنفيذ رغباتهم قبل أن تفرقهم قوات الشرطة. كما قامت الشرطة قبل أيام قلائل بتفريق حشد آخر منهم أربى على 5000 احتشدوا في مدينة إلى الجنوب قليلاً من مدينة طشقند عاصمة جمهورية أوزبكستان وكرروا مطالبهم .

ولم يطرأ أي تغير ملموس على مواقف السلطة الشيوعية تجاه تلك المطالب ، فعلى مدى الأعوام الثلاثين الماضية قابلت تلك السلطات مطالب المسلمين بأساليب مختلفة فتارة باتهامهم بإثارة النزعات العرقية ، وأخرى برفع شعارات معادية للدولة السوفيتية ، وثالثة بطرد رموزهم من وظائفهم أو

معاهدهم الدراسية وكثيرًا ما أصدرت في حقهم أحكامًا بالسجن في معسكرات العمل لمدة تتراوح ما بين 5 - 7 أعوام.
كما اتخذت السلطات الشيوعية إجراءات صارمة لضمان عدم عودة المسلمين إلى جزيرتهم في الفترة التي أعقبت صدور قرار بتبرئتهم فعمدت إلى طردهم من الجزيرة حال اكتشاف أمرهم ثم قامت بتحذير المستوطنين الجدد من مغبة بيع أو تأجير بيوتهم لهم وهددتهم بعقوبات صارمة واعتبرت كل عقود البيع أو التأجير تلك لاغية كما فرضت غرامات مالية على أطرافها.
وكنتيجة لهذه الإجراءات فإنه لم يتبق من مجموع 6000 شخص من المسلمين ممن وصلوا إلى الجزيرة في نهاية عام 1967م سوى ثلاثة رجال وعائلتين! أما أولئك الذين نجحوا في الحصول على فرص عمل هناك فإن عمليات الفصل والطرد كانت بانتظارهم حال التعرف على أصولهم العرقية ، كما قامت الشرطة السرية بغارات دورية على الأماكن التي يشتبه فيها وجود مواطنين مسلمين.
وفي النصف الأول من عام 1972م وسعت السلطات نطاق هذه الإجراءات لتشمل المناطق المحيطة بالجزيرة وذلك لمنع تمركز العوائل المنفية حولها ، وصحيح أن عدة مئات من عوائل المسلمين أتت إلى الجزيرة من خلال مشاريع عمل إلا أن هؤلاء اقتصروا على كونهم عوائل فلاحية أمية اشترطت مسبقًا بقاؤهم وبشكل دائم في المزارع والحقول التي أتوا من أجل العمل فيها وعلى هيئة تجمعات لا تزيد في حال على عائلتين وفي حالات خاصة على خمس عوائل هذا بالإضافة إلى حرمان أولادهم من حق الدراسة في المعاهد المتقدمة.
ولم تكن مشكلة ارتفاع عدد السكان في الجزيرة أو وفرة الأيدي العاملة وندرة فرص العمل هي الباعث على فرض تلك القيود الصارمة ، بل العكس هو الصحيح فإن الحكومة الروسية ما فتئت تحضر العمال الروس والأوكرانيين للذهاب إلى الجزيرة والعمل فيها في محاولة منها لسد الثغرة الناجمة عن قلة اليد العاملة.
وفي شهر نيسان من عام 1970م كانت هناك خطة لنقل ما يقرب من نصف مليون من المستوطنين من غير التتار إلى القرم في محاولة للتغلب على تلك المشكلة في الوقت الذي كانت تعاني فيه جمهوريات آسيا الوسطى حيث قطن التتار-من زيادة كبيرة في عدد العمال والتي أدت مؤخرًا إلى بدء ظهور حالة البطالة. وباختصار شديد ، لقد حرم مسلمو القرم من أبسط حقوق الإنسان التي يتبجح بها الرفاق الشيوعيون عند الحديث عن حريات الشعوب ، لقد سلبوا حتى من تلك الحريات البسيطة التي يتمتع بها غيرهم من الأقليات في الاتحاد السوفييتي الذي كان الأولى أن يسمى الاحتلال السوفييتي فهو في حقيقته احتلال وقهر وهو أبعد ما يكون عن أدنى مبادئ الاتحاد وإن هو إلا دولة

كبيرة (روسيا) جثمت على صدور دول صغيرة غُلبت على أمرها على حين غفلة منها (*).

وبعد :

فمعاملة الروس البلاشفة للمسلمين التتار ، والتي عرضناها في الصفحات السابقة؛ ليست إلا نموذجًا مما دأب عليه هؤلاء الشيوعيون ، ومن قبلهم آباؤهم وأجدادهم الروس القياصرة الصليبيون للشعوب المسلمة التي وقعت تحت سيطرتهم .

والدارس لمعاملة هؤلاء للشعوب المسلمة في أواسط آسيا يستنتج أنهم لا يقلون عداوة للمسلمين عن أضرابهم من الصليبيين الأوربيين ، وكذلك فإن هؤلاء الشيوعيين الذين ورثوا ظلم وطغيان القياصرة لا يختلفون عن هؤلاء إلا بتفننهم في حرب الإسلام والمسلمين ، وابتكاراتهم الدموية ، وتقدمهم في مجال الدعاية من أجل القضاء على كل ما يمت بصلة إلى الفهم الصحيح لهذا الدين من قبل معتنقيه وأهله.

إنهم يكررون كثيًرا كلمات من مثل:"الحرية ، السلام ، التقدم ، العدالة الاجتماعية ، تكافؤ الفرص ، الشعوب المحبة للسلام ، الديموقراطية ، محاربة الاستعمار .. . الخ" وهم أول من ينتهك هذه المصطلحات ، بل إن هذه المصطلحات نفسها ينبغي ألا تفهم - عندما يتلفظون بها وتدنسها أفواههم - إلا بعكس ما ترمي إليه حتى يستقيم فهمها مع المقاصد التي تقوم عليها دعايتهم وهى الكذب ، وتزوير الحقائق ، وظلم الشعوب وانتهاك حرماتها.

إن الشيوعيين - من أجل الوصول إلى أهدافهم - يستحلون كل محرم ، ويرتكبون كل نقيصة ، ولا يتورعون عن ارتكاب كل مخزية ، وهم - كنظرائهم الأوربيين - أبناء موروث ثقافي واحد تقريبًا ، من مبادئهم المقدسة أن الغاية تبرر الوسيلة ، والذي يشك في أن الروس والأوربيين جميعًا أبناء ثقافة واحدة تستقي مثلها من مبادئ اليونان والرومان الوثنيين ، بالإضافة إلى المسيحية المحرفة؛ ما عليه إلا أن يقارن حرص الدول الأوربية على قتل مقومات الشخصية الإسلامية حيثما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، كالحرص على نشر الثقافة الأوربية وقيمها ، وكراهية اللغة العربية ، ومحاولة قتل حب المسلمين بل العرب لها ، ومحاربة المصطلحات القرآنية والإسلامية ما أمكنهم ذلك؛ نقول: يقارن ذلك بحرص دول أوربا الشرقية الشيوعية التي تضم بين شعوبها أعدادًا كبيرة من المسلمين ، بفتنة هؤلاء المسلمين عن دينهم ، واستخدام كافة الأساليب لطمس هويتهم ، وقطع روابطهم الإسلامية بدأ من تحطيم بنيتهم ، وتهديم مساجدهم ومعاهدهم ، وملاحقة من يرفض الانصياع منهم - ولو سرًا - إلى ما تمليه رغبات هذه الأنظمة ، بل وصل الأمر إلى تدخلهم بأخص خصائصهم وهى أسماؤهم التي لا يسمحون لهم بأن يشم منها أنهم مسلمون ، وبلغاريا مثل معروف لهذا الذي نقول.

وإذا كان من عبرة لنا من عرضنا لهذا الطرف من الظلم للمسلمين ، ومن الحرب الضروس التي يشنها عليهم أعداؤهم ، فهذه العبرة أن الظلم والكيد لم يستطع اقتلاع هذه العقيدة من صدور أصحابها ، ومع أنه كانت له آثاره الهدامة في حياة هذه الشعوب الإسلامية؛ إلا أن ذلك ينبغي أن يدفع المسلمين في كل مكان إلى الوعي والعمل على فضح أساليب الشيوعية وأساليب جميع الذين يكيدون للإسلام والمسلمين.

إن المبادئ - الشرقية والغربية - والتي عاشت ولازالت تعيش من عدائها للإسلام ، قد ثبت فشلها ، وقدمت حوادث التاريخ وعبره تراجعها سواء على الأرض ، أو في نفوس أصحابها ، وهذه بشارة لنا - نحن المسلمين - وحافز لنا ، فهل نكون على مستوى المسؤولية؟.

الهوامش:

*** المراجع:**

1 - Fisher ، A. (1978) (The Crimeam Tatars) ، Hooyer Instituthion Press ، Stanford Univarsity ، Stanford ، California.

2- Minority Rights Group ، Report No.6 ، Soviet Treatment Of Some National Minorities.

3- Wheeler. G. E. (1976) (Islam in the Soviet Union) ، Pall Mall Press ، London.

خواطر في الدعوة

الفقه العملي عند الإمام مالك

محمد العبدة

كان الإمام مالك بن أنس يرسم منهج أهل السنة ويعبر تعبيرًا صادقًا عن نـظـرتـهــم للأمور عندما قال قولته المشهورة: "لا أحب علمًا ليس تحته عمل" وكأنه يرد بذلك على مـنـهـج الجدل وتكديس المعلومات التي ليس لها من الواقع العملي نصيب ، والذي بدأ يتغلغل في جسم المجتمع الإسلامي يومها. ولذلك أجاب عمن سأله عن هذا النوع من العلم: "انظر ما ينفعك في ليلك ونهارك فاشتغل به".

لقد انغمس كثير من المسلمين بعد عصـر مـالـك بـالكلام الــذي لـيـس تحته عمل ، وأتعبوا أنفسهم وأتعبوا غيرهم ، بطرق وعرة لا تصل بالمسـلـم إلـى الـيـقـيـن والعلم النافع ، ووقع المسلمون في فخ فلسفة اليونان التي تعتمد على المنطق الذهني البارد ، فالفيلسوف هنا يرسم صــورًا في ذهنـه ولكن لاوجود لها في عالم الواقع ، وأحياناً لا يمكن أن تـوجـد ؛ ولـهـذا ضـعـف الـعـلـم التجريبي عند المسلمين وضعف الاهتمام بالمشكلات الواقعية كما

كان يفعل أئمة الفقه أمثال مالك والشافعي؛وانـصـب الاهـتـمـام على مشكلات خيالية يفترض لحلها الافتراضات وهي لم توجد بعد ، وظهرت المعتزلة وخـاضـوا بأدق التفاصيل التي ليس لها وجود - وهم الذين يحاول بعض الكتاب المعاصرين الرفع مـن شـأنـهـم والإيحــاء بأنهم يـمـثـلــون تيار العلم والنهضة - هؤلاء لم يتكلموا ويتوسعوا في العلوم الطبيعية أو العـلــوم الرياضية التي تنفع المسلمين ، وإنما شغلوا المسلمين بـ(الكلام) ونسوا هم وغيرهم أن الدنيا طريق الآخرة ، ولابد لهذا الطريق من أن يعمر ولكن عمران الوسيلة لا عمران الغاية ، لأنه إذا صلـحـت حــال الفــرد مع فساد الدنيا حوله واختلال أمورها فلن يعدم أن يتعدى إليه فسادها وتؤثر عليه وتخل بآخرته ، وكيف يقوم بالعبادات على وجهها الصحيح والمشروع ، وكيف ينشر العلم ويجـاهــد في سبيل الله إذا كانت دنياه خربة ، ثم يستعين بالكفار في مأكله وملبسه ومسكنه وأسلـحـتـه ، وكـيــف يحافظ على دينه والأعداء يتناوشونه من كل مكان .

وتابع علماء أهل السنة منهج الإمام مالك ، من هؤلاء الإمام الشاطبي ، وشيخ الإسلام ابن تيمية الذي دعا إلى المنهج التجريبي العملي ، وأن حصول المعرفة يأتي من خلال استقراء الجزئيات ، وإنني أعتقد أنه لو سار المسلمون على هذا المنهج لتغير حالهم ، ولما وصلوا إلى هذا الضعف المزري ولما صرفوا كل طاقاتهم في حفظ الحواشي والكلام البارد الذي سطره أمثال (سعد الدين التفتازاني) أو (العضد الإيجي) الذين حولوا العقيدة الإسلامية إلى ألغاز وأحاج ، يقول الدكتور النشار: (إن ابن تيمية يؤمن بالجزئيات ويرى أن التجربة وحدها هي أقرب إلى الحقيقة مما ينتجه الفلاسفة بقـيــاس ، وليس هناك في الحقيقة من تكلم - فيما قبل العصور الحديثة - بما تكلم به ابن تـيـمـيـة ، لـقــد وصل حقًا إلى أوج الدرج في فلسفة المنهج التجريبي ، وعبر عن روح الحضارة الإسلامية الحقــة) (مناهج البحث عند مفكري الإسلام / 221).وهذا الذي قاله ابن تيمية هو منهج أهل السنة لا كما يحاول بعض المعاصرين اعتبار كثير من علماء الكلام الذين تأثروا بمنهج المعتزلة فـي الجــدل ، من أهل السنة .

لقد تنبه الغربيون في العصر الحديث للأثر الخطير الذي يجره المنطق الأرسطي على طرق التفكير ، وتكلموا عن الفكر الذي وراءه عمل ، أو من الممكن تطبيقه في دنيا الواقع وقالوا: إذا كانت لديك فكرة وأردت تحديدًا لمضمونها فانظر ماذا عسى أن يكون لها مـن نـتـائج تطـبـيـقـيـة في دنيا العمل ، فهل يعي المسلمون كلام الإمام مالك ، ولا يجرون وراء الهيام الأحمق بـ (الكلام)؟.

المحدث الكبير
محمد أنور شاه الكشميري

تاج الدين الأزهري

ولادته ونشأته:

هو الفـقيه المجتهد محمد أنور بن معظم شاه ، ولد بكشمير سنة 1292هـ وقد تربى على والـديــه تربية مثالية ، ولذلك كان معروفًا بالتقوى وغض البصر واحترام الأساتذة ، كان يقول الشيخ مولانا القاري محمد طيب رحمه الله: كنا نتعلم السنن النبوية من سيرة الشيخ أنور وكأن الأخلاق النبوية تجسدت في صورته(1).

ودرس على والده الشيخ غلام رسول الهزاروي كتبًا في الفقه وأصوله ولما بلغ السابعة عشرة من عـمـره سـافـر إلى ديوبند ، والتحق بدار العلوم هناك وتخرج منها سنة 1313هـ ، وقد حصل على إجازة درس الحديث من شيخ السنة مولانا رشيد أحمد الكنكوهي وشيخ الهند مولانا محمود الـحـسـن رحـمـه الله ، ويصل سنده إلى الإمام الترمذي والشيخ ابن عابدين الحنفي .

قوة حافظته وطريقته في المطالعة :

كان الشيخ رحمه الله شديد الاستحضار قوي الحافظة ، شغوفًا بالمطالعة ، وقد انتهى من مطالعة (عمدة القاري شرح صحيح البخاري) للحافظ العيني في شهر رمضان المبارك وأراد بذلك أن يستعد لدراسة صحيح البخاري في العام الدراسي المقبل الذي كان يبدأ في شهر شوال ، وقد استوعب (فتح الباري شرح صحيح البخاري (للحافظ ابن حجر مطالعة أثناء قراءته صحيح البخاري على شيخه مولانا محمود الحسن رحمه الله(2).

وكانت طريقته في المطالعة أنه إذا وقع في يده أي كتاب علمي مطبوعًا كان أو مخطوطًا أن يأخذه ويطالعه من غير أن يترك شيئا منه ، وهو أول عالم بين علماء الهند طالع مسند الإمام أحمد بن حنبل المطبوع بمصر ، فكان يطالع منه كل يوم مائتي صفحة مع نقد أحاديثه وضبط أحكامه(3).

مكانته العلمية :

كان الشيخ رحمه الله إمامًا في علوم القرآن والحديث، وحـافـظًـا واعيًا لمذاهب الأئمة مع إدراك الاختلاف بينهما، وقادرًا على اختيار ما يراه صوابًا، ولم يقـتـصر في مطالعته على كتب علماء مدرسة بعينها - مع أنه كان حنفيًا - وإنما قرأ لـعـلـمــاء مدارس مختلفة لهم انتقادات شديدة فيما بينهم ، مثل الحافظ ابن تيمية والحافظ ابن القيم وابن دقيق العيد والحافظ ابن حجر رحمهم الله ، وقد أحاط بكتب أهل الكتاب من أسفار العهد الجديد والقديم ، وطالع بالعبرية وجمع مئة بشارة من التوراة تتعلق برسالة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- (4).

رحلاته العلمية :

سافر الشيخ رحمه الله بعد تخرجه إلى عدة مدارس ، ودرس هناك عدة أعوام ، وقد التقى في فــرصــــــة زيارة الحرمين الشريفين بعدد من رجال العلم ، منهم الشيخ حسين الجسر الطرابلسي عالم الخلافة العثمانية صاحب الرسالة الحميدية والحصون الحميدية (5).

وبدأ بالتدريس في دار العلوم في ديوبند بعد عدة أعوام من رجوعه من الحرمين الشريفين ، وظل مدرسًا بــهــــــا حتى عام 1345 هـ ، ثم رحل إلى "داهبيل" في مقاطعة "كـجـرات"، وأسس بها معهدًا كبيرًا يسمى "بالجامعة الإسلامية" وإدارة تأليف تسمى "بالـمـجـلـــس العلمي ".

آراء معاصريه من العلماء فيه :

وقد أثنى عليه العلماء المعاصرون ، ولثناء المعاصر على المعاصر قيمة كبيرة .فقد قال الشيخ سليمان الندوي رحمه الله: هو البحر المحيط الذي ظاهره هادئ ساكن وباطنه مـمـلــوء من اللآلئ الفاخرة الثمينة(6).

وقال المحدث علي الحنبلي المصري رحمه الله: ما رأيت عالمًا مثل الشيخ أنور الذي يستطيع أن ينقد على نظريات الحافظ ابن تيمية والحافظ ابن حجر وابن حزم والشوكاني رحمهم الله ، ويحاكم بينهم ويؤدي حق البحث والتحقيق مع رعاية جلالة قدرهم(7).

جهوده في الرد على القاديانية :

قد ظهرت في العالم فتن كثيرة ، وقد عمل العلماء ضدها بجهد كبير ، ومن الفتن الـكـبرى الـتـي وقـعــت في هذه البلاد (الهند) بوحي من أعداء الإسلام وتأييد منهم "نشأة الفـتـنة القاديانية" وقد تصدى العلماء لهذه الفتنة الملعونة ، وواجهوها وجدوا في القضاء علـيها في جميع البلاد .

وكانت جـهـود الشيخ أنور رحمه الله في مواجهتهم أكثر من جهود العلماء المعاصرين لأنه لم يكن يـدخـر جهدًا ولا يهدأ له بال ولا يرتاح له فكر في ليل أو نهار ، وكان يفكر دائماً فـي إيـجـاد الطرق الكفيلة للقضاء على هذه الطائفة فأيقظ العلماء من النوم العميق في أنحاء الـعـالـم ، وحـثـهــم على القيام بواجبهم في القضاء عليها بالتبليغ والتصنيف ، وقد تيسر لأصحابه وتلامذته تأليف كتب ورسائل ضد هذه الطائفة الكاذبة باللغات المختلفة .

وقد ألف الشيخ أنور بنفسه ، مؤلفات صغيرة وكبيرة حولها منها:

1- إكفار الملحدين .
2- التصريح بما تواتر في نزول المسيح .
3- تحية الإسلام في حياة عيسى عليه السلام .
4- عقيدة الإسلام في حياة عيسى .
5- خاتم النبيين.

وهذه كلها باللغة العربية إلا كتاب خاتم النبيين فإنه باللغة الفارسية .

آثـــاره:
قد ترك الشيخ آثارًا في صورة التلامذة والكتب المؤلفة ، فأما عدد تلاميذه فيزيد على ألفين وأكتفي بذكر بعض منهم :
حضرة الأستاذ الشيخ مناظر أحسن الجيلاني رحمه الله: كان عالمًا كبيرًا ومحدثًا جليلاً ومصنفًا عظيمًا وله مصنفات كثيرة .
والمحدث الكبير مولانا حفظ الرحمن السوهاروي رحمه الله .
والشيخ القارىء محمد طيب رحمه الله: ومن تصانيفه ما يلي: أصول الدعوة الدينية ، نظام الأخلاق في الإسلام ، شأن الرسالة ، القرآن والحديث .
والمحدث الجليل مولانا محمد إدريس الكاندهلوي رحمه الله .
كانوا مصنفين في علوم القرآن والسنة .
أما كتبه المؤلفة غير التي ذكرتها فهي كما يلي:
(فيض الباري شرح صحيح البخاري) في أربعة مجلدات ، (عرف الشذى على جامع الترمذي) ، (مشكلات القرآن) ، (نيل الفرقدين في مسألة رفع اليدين) ، (فصل الخطاب في مسألة أم الكتاب) ، (ضرب الخاتم على حدوث العالم) ، (خزائن الأسرار) ، وكلها كتب باللغة العربية.

الهوامش:
1- مشاهير علماء ديوبند ، القاري فيوض الرحمن ، ص 485 ، نقش دوام مولانا ، انظر ص 81.
2- التصريح بما تواتر في نزول المسيح ، علامة أنور شاه كشميري ، ص 14 نفحة العنبر ، محمد يوسف البنوري ، ص 300 ، مقدمة أنوار الباري ، 2 / 245.
3- نفحة العنبر ، ص 25 ، مقدمة أنوار الباري 2 / 245 .
4-المصدر السابق ، ص 95 .
5-تاريخ دار العلوم ديوبند ، السيد محبوب رضوي ، ص 199 ، دائرة المعارف الإسلامية 17/306.
6-مقدمة أنوار الباري ، 2/240? نفحة العنبر ، ص 4 30 ، تاريخ دار العلوم - ديوبند ، ص 119.
7-الأنور ، عبد الرحمن كوندو ، ص 595.

@المدرسة الإصلاحية...والتجديد

لابد قبل الكلام عن الـمـدرسـة الإصـلاحـيـة التي قادها الأفغاني ومحمد عبده ومن تتلمذ عليهما في نهاية القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، وهل ينطبق عليها مفهوم التجديد أم لا؟ أن نعود مرة ثانية إلى تعريف التجديد وتحديـد

مـضـمـونـه وأن نـفـرق أيـضـاً بـيـنـه وبين (التطوير) أو (العصرانية) حتى لا يختلط الأمر وتلتبس المفاهيم .

عودة إلى معنى التجديد :

جاء في العددين الأول والثاني من (البيان) حول معنى التجديد :
"فتجديد الدين يعنى إعادة نضارته ورونقه وبهائه وإحياء ما اندرس من سننه ومـعـالـمــه ونشره بين الناس ، ويكون التجديد بإحياء الفرائض المعطلة ، وإزالة ما علق بهذا الـديــن مــن الآراء الـضـالــة والمفهومات المنحرفة ، وتخليص العقيدة من الإضافات البشرية لتفهم بالبساطة التي فهمها سلف هذه الأمة ، وإحياء الحركة العلمية في مجال النظر والاستدلال ، والعمل على صياغة حياة المسلمين صياغة إسلامية شرعية".
وجاء في كتاب (مـفـهـوم تجديد الدين): "إن التجديد يشمل حفظ نصوص الدين الأصلية صحيحة نقية ، ونـقـل الـمـعـاني الصحيحة للنصوص وإحياء الفهم السليم لها ، والسعي للتقريب بين واقع المجتمع المـسـلم فـي كل عصر ، وبين المجتمع النموذجي الأول الذي أنشأه الرسول -صلى الله عليه وسلم- ، وإحـيـاء مـنـاهـج ذلك المجتمع في فهم النصوص والاجتهاد ، كما يشمل التجديد تصحيح الانحرافات النظرية والفكرية والعملية والسلوكية وتنقية المجتمع من شوائبها" (1).

التطوير أو العصرانية :

"إذا كان التجديد يعني الإحياء والعودة إلى منهج المجتمع النموذج في فهم النصوص فإن التطوير يعني أن التقدم العلمي والثقافة المعاصرة يستلزمان إعادة تأويل التعاليم الدينية على ضوء المفاهيم الفلسفية والعلمية المعاصرة"(2).
وقد عرفت حركة تطوير الفكر الديني الغربي باسم (العصرانية) وهي تطويع مبادئ الدين لقيم الحضارة الغربية ومفاهيمها ، وإخضاعه لتصوراتها ووجهة نظرها في شؤون الحياة ، ومنذ أوائل القرن التاسع عشر ظهر في أوربا نزعات بين صفوف اليهود والنصارى سميت بالتحررية أو الإصلاحية ، وهدفها إعادة تفسير مفاهيم الدين في ضوء ما يسمى معارف العصر ، فقالوا :
إن الشريعة الإلهية رغم أنها موحى بها من عند الله فهي موقوتة بظروفها التي جاءت بها وليست دائمة. وفرقوا بين (الإلهي) و (البشري) وأعطوا الثاني حق التطوير والمعرفة الجديدة في كل عصر أو (الوحي المتطور) ، وأنكروا معجزات عيسى عليه السلام مثل إحياء الموتى وتكثير الطعام ، كما أنكر بعضهم ألوهية المسيح (وهذه من حسناتهم) وفي سبيل هذا المبدأ راحوا يقترحون ويخترعون أي فكرة لتطوير الدين وجعله ملائمًا لعصرهم. فقالوا بفكرة (الروح) ، و(الشكل) فروح الدين دائمة وأما شكله فهو متغير ، ونادى بعضهم بالحلول حتى يعطي لكل كلمة يقولها فيلسوف قيمة الوحي الإلهي.

وظهر بين صفوف المسلمين من يمثل هذه الروح وراح يعبث بالنصوص يؤولها حسب هواه وحسب انهزاميته أمام الغرب وعلى رأس هؤلاء سيد أحمد خان الهندي .
وإذا اضطر كتاب اليهود لتأويل نصوص كتبهم وتفسيرها تفسيراً لا يتعارض مع التقدم العلمي فقد يكون لهم بعض العذر في ذلك لما في كتبهم المحرفة من تناقض واضطراب وقصص ومقولات تستعصي على الفهم ، وتناقض العقل تناقضاً صريحاً ، إذا اضطروا إلى ذلك فليس للمسلمين أي عذر أو أي مبرر للمحاولات المكشوفة للتقرب من الغرب ، والتظاهر بأن الإسلام لا يتعارض مع حضارتهم ، ذلك أن الإسلام محفوظ بحفظ الله ، سواء أكان ذلك بحفظ النصوص من القرآن والسنة ، أو طريقة فهم هذه النصوص ، والقواعد التي وضعت لاستنباط الأحكام والاجتهاد تعطي العلماء المرونة الكافية لفهم كل عصر وبيان ما هو حق وما هو باطل ، دون خضوع لضغوط العصر ومشكلاته .

المدرسة الإصلاحية :

على ضوء هذا التعريف للتجديد والفرق بينه وبين التطوير ، نحاول تقويم المدرسة الإصلاحية التي توسم بالتجديد ويقال عن زعمائها إنهم مجددون.
ودراسة ما قام به جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده ومن تأثر بهما من محاولات لفهم الإسلام على ضوء هذا العصر ، وتفسير بعض نصوصه تفسيرًا يلائم الحضارة الغربية ، لنرى هل ينطبق عليهم اسم التجديد أم اسم التطوير .
إن زعيم هذا الاتجاه ، والمذكي لناره ، هو جمال الدين الأفغاني أو (الأسد أبادي) كما صح أخيرًا من تحقيق نشأته. ومع أنه لم يترك وراءه عملاً علميًا يكون دليلاً لآرائه وأفكاره - سوى كتابه (الرد على الدهريين) وآرائه المنشورة في مجلة (العروة الوثقى)؛لكن بصماته ظاهرة وواضحة في تلميذه محمد عبده وغيره ممن كانوا يحضرون دروسه ومناقشاته ، وربما كان يفضل أن يلقي بآرائه شفاهًا ، ليكون التأثير أقوى (لا شك أنه ذو شخصية مؤثرة مسيطرة) وربما لخطورة ما كان يلقي من آراء أيضاً فهو يثير موضوعًا هنا وموضوعًا هناك حسب نوعية الناس الذين يستمعون إليه .
وإذا أردنا تقديم فكرة موجزة عن نشاط وآراء الأفغاني نقول:
1- له نشاط سياسي واسع وحركة دائبة لا تفتر ، فهو يؤسس الأحزاب وينشر الصحف والمجلات؛ويتحالف مع الدول ثم ينقلب عليها ، ويدبر المؤامرات ، ويدخل المؤسسات العالمية كالماسونية ، كل هذا وهو يتنقل بين البلدان يدعو الشرق - والمسلمون منهم - إلى النهوض والتقدم ، أو هكذا ظاهر دعوته ، لأن الغموض كان يحيط ببعض تصرفاته وأساليبه ، كصلته بأمراء روسيا القيصرية ، وإقامته عندهم في بطرسبرج أربع سنين كان فيها موضعًا لإكرام القيصر (3). ولكن هذه الحركة لم ينتج عنها شيء علمي مما تتطلع إليه آمال

المسلمين ، كإحياء خلافة ، أو تأسيس ملك إسلامي ، ولم يصدر عنها تيار إسلامي قوي يصارع الغرب ويقـف في وجه شروره .
2- من الناحية الفكرية كان الأفغاني فيلسوفًا قبل أن يكون مصلحًا ، فهو من الناحية السياسية يتكلم عن الشرق وأمراضه ، ويقول: "فالشرق ، الشرق ، وقد خصصت جهاز دماغي لتشخيص دائه وتحري دوائه ، فوجدت أقتل أدوائه وما يعترض توحيد الكلمة فيه داء انقسام أهليه واختلافهم على الاتحاد واتحادهم على الاختلاف"(4) ، ويقول عثمان أمين: "إن الجامعة التي كان ينشدها الأفغاني ومحمد عبده ليست هي الجامعة الإسلامية وإنما هي في صحيحها الجامعة الشرقية " (5) ، وهو من الناحية الدينية يحاول الجمع بين الملتين السابقتين: اليهودية والنصرانية وبين الإسلام "لما لاحظه من تمام الاتفاق بينها في المبدأ والغاية" (6). ثم تراجع عن هذه الفكرة متهماً القائمين على هذه الأديان بأنهم يحبون التفرق ، ويقول عنه رشيد رضا: " كان يميل إلى مذهب وحدة الوجود الذي يقول به فلاسفة الإفرنج وبعض الصوفية" (7) ، والإنسان عنده مَلَك أرضي يجب أن يرتفع بروحه إلى العالم العقلي ، فكأنه يريد جمع الشرق والأديان كأحلام فلسفية كبيرة ، وشعارات جذابة ولكنها غير واقعية.
أو أن في الأمر شيئًا آخر كان يخطط له من وراء هذه الشعارات ، وليس غرضنا هنا تحليل شخصية وأعمال الأفغاني بقدر ما هو استجلاء أفكاره وتطلعاته من حركته الدائبة من ثم لبيان هل ينطبق عليها اسم التجديد؛ والحقيقة أنه إذا كان سلوكه الشخصي فيه كثير من المخالفات لقواعد وآداب الإسلام وعقيدته كما وصفنا عدا عن ارتباطاته السياسية فهل يكون مجددًا؛ والمجدد لابد أن يكون من أهل السنة عقيدة وسلوكًا.

محمد عبده :

إذا كانت شخصية الأفغاني وأهدافه فيهما شيء من الغموض ، فإننا مع محمد عبده حيال شخصية واضحة ، فآراؤه التي تأثر فيها بأستاذه أو فكره الخاص مكتوب بقلمه أو بواسطة تلميذه رشيد رضا ، وسنجد أن معظم الآراء التي طرحها فيما يسمى بـ (الإصلاح) يمكن إدراجها تحت مفهوم (العصرانية) ومحاولة التلفيق بين الإسلام وروح الحضارة الغربية أو تابع فيها خطأ المعتزلة من قبل ، ففي كتابه (رسالة التوحيد) أعاد منهج علماء الكلام في عرض العقيدة الإسلامية وتركيزهم على توحيد الربوبية ، ووافقهم في قولهم (إن أول واجب على المكلف أن يأتي به هو النظر والفكر ، وإن الأصل الثاني للإسلام: تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض)(8) ، وجارى المعتزلة في عدم الأخذ بحديث الآحاد في العقائد. يقول: "ما قيمة سند لا أعرف بنفسي رجاله ولا أحوالهم ، ولكنا نعرض هذه المأثورات على القرآن فما وافقه كان القرآن هو حجة صدقه ، وما خالفه فلا سبيل لتصديقه"(9).

ويتبع أستاذه الأفغاني في موضوع (تقارب الأديان) فقد أسس بعد عام 1885م جمعية سرية للتقريب بين الأديان شارك فيها عدد من رجال الدين "المستنيرين" ممن ينتمون إلى الأديان السماوية الثلاثة (10) ، وهو لا يشنع على النصارى شركهم وادعاء الربوبية لعيسى عليه السلام ، ويحصر الخلاف معهم بأنهم لم يؤمنوا بمحمد -صلى الله عليه وسلم- ، يقول :
"وليس المراد بنبذهم الكتاب وراء ظهورهم أنهم طرحوه برمته وإنما المراد أنهم طرحوا جزأ منه وهو ما يبشر بالنبي -صلى الله عليه وسلم-"
وعندما تعرض لموضوع الزواج من كتابية قال: "فهي تدين بوجوب عمل الخير وتحريم الشر والفرق الجوهري العظيم بينهما هو الإيمان بنبوة محمد -صلى الله عليه وسلم-"(11) ، وقرر هذه القاعدة في كتابه (الإسلام والنصرانية) وذكر بأن الأصل السابع من أصول الإسلام الثمانية مودة المخالفين في العقيدة(12).

في التفسير:

أكثر ما تظهر (عصرانية) محمد عبده عندما يتعرض لتفسير القرآن الكريم فهو يحاول تأويل بعض الآيات تأويلاً يتناسب - بظنه - مع العلم الحديث أو مع روح العصر . ففي قوله تعالى ((ومِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي العُقَدِ)) ، قال: المراد هنا النمامون المقطعون لروابط الألفة ، لأنه ينكر أن يكون السحر حقيقة ملموسة (13).
عندما يقول رشيد رضا في تفسير المنار: "إن الأجسام الحية التي تسمى بالميكروبات يصح أن تكون نوعًا من الجن " وأن كل أمر كلي قائم بنظام مخصوص تمت بهِ الحكمة الإلهية في إيجاده فإنما قوامه بروح إلهي سمي في لسان الشرع ملكًا". عندما يذهب بعيدًا في تفسير هذه الآيات فإنما يعبر عن رأي شيخه وموقفه من الجن والملائكة. بل إن الشيخ محمد عبده يدعو كل مفسر "لأن يتزود بشيء من اللغة العربية ودراسة السيرة ، والنظر في الكون ثم يفهم القرآن حسب عصره" وهذه دعوة جريئة للخوض في كتاب الله بغير علم.

الفقه والسياسة الشرعية:

لم يتكلم محمد عبده عن الحكومة الإسلامية كما تكلم على عبد الرازق بعدئذ في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) ولكن كلام الشيخ عن السلطة في الإسلام وأنها مدنية من جميع الوجوه وأنه ليس في الإسلام سلطة سوى الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير ، فإن كلامه هذا كان مقدمة وتمهيدًا لما كتبه على عبد الرازق ، وإن لم يكن بالوضوح نفسه ، وربما يقال إنه يقصد أن الحكومة في الإسلام ليست (ثيوقراطية) أو ليس في الإسلام سلطة كسلطة البابا عند النصارى ولكنه يبقى كلامًا غامضًا مما شجع هذا الاتجاه الذي يعتبر أن الحكم والخلافة ليستا من أصول الإسلام.

أما رأي الشيخ في الجهاد فهو ينم عن ضعف شديد أمام الغربيين فهو يرى أن المسلمين إنما شهروا سيوفهم في أول الدعوة دفاعًا عن أنفسهم ، أما الفتوحات التي وقعت بعدئذ فهي من (ضرورة الملك) ورأيه هذا يعنى أن الفتوحات كانت سياسة بحتة قصدها التوسع.
ومجمل آرائه الفقهية يلحظ فيها هذا الضعف ، فعندما استفتي: هل يجوز منع تعدد الزوجات؟ أجاب: نعم ، لأن العدل المطلق شرط واجب التحقيق وتحقيق هذا العدل مفقود حتمًا ، فللحاكم والعالم منع التعدد اللهم إلا في حالة واحدة ، ما إذا كانت الزوجة عقيماً.
وهذا تحكم منه في شرع الله لم يأذن به ، وكذلك فتواه في حل إيداع الأموال في صندوق التوفير وأخذ الفائدة عليها ، ويبلغ الشيخ قمة التقرب من الغرب والانبهار أمام حضارته عندما يتكلم عن الرسم والنحت وسائر الفنون فيقول: "فحفظ الآثار والرسوم والتماثيل هو حفظ للعلم والحقيقة ، وشكر لصاحب الصنعة على الإبداع فيها". ويقول لتلميذه رشيد رضا: "إن الراسم قد رسم والفائدة محققة ، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد محي من الأذهان" فنحن أمام رجل يريد إعمال عقله في النصوص وليس فهم النصوص ومقاصد الشريعة ، ومع ذلك فالشيخ محمد عبده يختلف عن أستاذه ، فقد رأى من خلال تجربته أن الاهتمام بالتعليم ، وتربية الأجيال والابتعاد عن مشاكل الأفغاني ومشاغله السياسية هو الحل الصحيح ، وهذا مما أغضب أستاذه فأرسل إليه يعنفه ويقول: "كن فيلسوفًا يرى العالم ألعوبة ولاتكن صبيًا هلوعًا" ولكن محمد عبده آثر وصمم على انتهاج طريق إصلاح التعليم لأنه يرى أن أسباب الخذلان عند المسلمين هو القصور في التعليم الديني (14) ، ونقد الأزهر وجموده وطرق تعليمه ، وعبارات الكتب المتأخرة المتداولة ، ودعا إلى كسر قيود التقليد الأعمى ، وهاجم الصوفية الذين يعتقدون بالأموات وقال: إن هذا من أعمال الوثنيين ، كما نقد جمهور العامة لأنهم إما جبرية أو مرجئة ، وبعض هذا النقد من الإيجابيات إلا أنه غالى في مهاجمة التقليد ، فكان من وراء ذلك فتح باب الاجتهاد على مصراعيه لمن يحسنه ومن لا يحسنه ، كما أنه في هجومه على عقيدة (الجبر) والتكاسل ضخّم من شأن الاختيار حتى قرب من المعتزلة ، وهجومه على الصوفية وإن كان حقًا إلا أنه لم يتبن عقيدة أهل السنة ، بل كان كهجوم المعتزلة عليهم لأن الصوفية لا يأبهون للعقل ويعتمدون على الذوق والوجدان ، وإذا كان أهم أعمال محمد عبده هو كسر الجمود الذي ران على التعليم والأزهر ، وعلى المفاهيم بشكل عام ، فإن ذلك كان على حساب مبادئ الإسلام وتعاليمه ، وسنرى أن تلميذه رشيد رضا كان خيرًا منه ولكن ليس كل تلامذته على هذه الشاكلة فمنهم قاسم أمين وسعد زغلول.
وعلى كلى حال لا يزال يتمسح بمحمد عبده من يريد إسلاماً عصرياً يلائم هواه أو ضعفه.

رشيد رضا:
من أبرز تلامذة ومحبي محمد عبده ، وهو وإن اختلف معه في بعض الأمور أو ابتعد عن منهجه في التفسير بعد أن استقل به منفردًا ولكنه ظل وفياً له ، منافحًا عنه وعن الأفغاني حتى آخر حياته ، ولا شك أن رشيد رضا يعتبر من المصلحين البارزين في هذا العصر ، فقد كانت مجلة المنار من المجلات الإسلامية التي تهتم بشؤون المسلمين وتدافع عن الإسلام ، وفيها كتب آراءه في الإصلاح ، ونبه الأمة وحذرها ، وأبدأ وأعاد في أهمية الإصلاح السياسي بتقييد الحكومات بالشورى ، وركز على سنن الاجتماع البشري وعمارة الدنيا في سبيل الآخرة ، والارتقاء بالمسلمين والاهتمام بالصناعة وثروة الأمة ، وهاجم الترف والإسراف ، ودعا العلماء للقيام بواجبهم دون خوف أو ملل ، واهتم بالتعليم وتربية الأمة ، وكان من آماله الكبيرة إنشاء معهد للدعوة والإرشاد لتخريج أجيال تفهم دينها وتتعلم العلوم الحديثة ، وقد حاول جاهدًا إقامة هذا المعهد ، فرحل إلى العاصمة "استامبول" ، وأقام هناك سنة ، ولكنه لم يوفق ثم رجع إلى القاهرة ، ولكن جهوده لم تدعم ولم يقم المعهد (15) ، وفي تفسير المنار أودع نظراته الثاقبة في داء الأمة وأسباب رقيها ، وتكلم عن فلسفة تاريخ الاجتماع البشري(16) ، كما دعا إلى نبذ التقليد والتعصب للمذاهب الفقهية إلا أنه ذهب إلى أبعد مما تحتمله هذه المسألة .
ومع هذه اللهجة الصادقة في الإصلاح وانتهاج مذهب السلف في الأسماء والصفات والرجوع إلى الأحاديث النبوية - وهذا مما يختلف به عن شيخه - إلا أنه ظل متأثرًا به في كثير من المواضيع ، فهو يردد شبهة العقلانيين التي تقول بأن علماء الحديث لم يبحثوا في المتون أو يعتنوا بها ، وإنما كانت عنايتهم بالأسانيد ، ولو انتقدت الروايات من جهة فحوى متنها لانتقصت كثير من الأسانيد (17) ، وظل متأثرًا بشيخه في موضوع المعجزات التي ذكرت في القرآن يحاول تأويلها تأويلاً بعيدًا غير مقبول ، اعتذارًا من أحرار الغرب كما يسميهم. فمعجزة حمل السيدة مريم بعيسى عليه السلام هو أنها عندما بشرت به انفعل مزاجها ففعل في الرحم فعل التلقيح ، وكان نفخ الروح الذي ورد بعدئذ متممًا لهذا التأثير (18)!! وعندما تكلم عن إصلاح المرأة وتعليمها ، وموضوع التعدد كانت لهجته اكثر تقيدًا بالشرع وبالأحاديث ، وأكثر ثقة بالإسلام من منهج شيخه ، ولكنه وافق شيخه في موضوع التعدد وأنه يجوز منعه ، كما حاول تبرير كل تصرفات شيخه وأستاذه الأفغاني ، واعتذر عن بعض مواقفهم مثل دخولهم في الماسونية .
وبعد:
فإن المدرسة الإصلاحية أو (المعتذرون) ليسوا على درجة واحدة فالأفغاني غير محمد عبده ، والأخير غير رشيد رضا ، وإذا كانت أهداف الأفغاني ومحمد

عبده متقاربة من ناحية الشكل النهائي رغم اختلافهما في الوسائل ، فإن رشيد رضا أقرب منهما إلى الإصلاح المنشود ، وأقرب إلى فهم الإسلام.
ومشكلة المدرسة العصرانية أن منهجها غير قابل للتطبيق لأنهم يريدون استنبات بذرة أجنبية وإدخال جسم غريب لا تتقبله طبيعة هذه الأمة .
ولأنهم انطلقوا من فرضية انهزامية تقول بأن الدين يجب أن يتلاءم مع العصر الحاضر بظروفه وأحواله وعلومه وتقدمه لم يصلوا إلى النتائج المتوخاة ، فالدين لا يساير كل تطور بل الصحيح كما يقول الشيخ أبو الحسن الندوي :"إن الدين يميز بين تغير سليم وآخر غير سليم ، وبين نزعة هدامة وأخرى بناءة"(19).
ورغم أننا لا نستطيع التقليل من شأن ما قام به رشيد رضا من جهود لإصلاح حال الأمة الإسلامية ، وصدق لهجته في ذلك ، وما قام به أستاذه من كسر للجمود ، وتوجيه النظر للأخذ بالأسباب ، إلا أننا لا نستطيع اعتبار هذه المدرسة (مدرسة تجديدية) -رغم تباين أصحابها في الأخذ بالعصرانية - لا نستطيع اعتبارها مدرسة تجديدية حسب التعريف والأوصاف التي وضعت للمجدد والتجديد ، والحقيقة أنهم لم يستطيعوا إرجاع الدين غضًا طريًا بعلمهم وعملهم وسلوكهم ، بل حاولوا تطويره ، وهنا تكمن الخطورة لأن التطوير يشوش مفاهيم الإسلام بإدخال الزائف على الصحيح حتى يظن الناس أن هذا من الدين ، وسيئة أخرى للتطوير هو أنه ينتهي بالتفرق لأن كل جماعة تذهب في التطوير مذهبًا يخالف الأخرى (20)? والفرق بين العصرانية التي ينادي بها بعض المفكرين المستغربين وبين التجديد في الإسلام أن الأصول الصحيحة للإسلام موجودة وعلى ضوئها يمكن تجديد الدين وبعثه نقيًا خالصًا.

الهوامش:

1 - بسطامي محمد سعيد: مفهوم تجديد الدين /27 ، وانظر ص281.
2 - بسطامي محمد سعيد. مفهوم تجديد الدين / 96 .
3 - رشيد رضا: تاريخ الإمام 1/54.
4- خاطرات جمال الدين ، مقال في (تراث الإنسانية)م 1/833.
5- المدرسة العقلية في التفسير /388.
6- د. فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام / 151.
7- تاريخ الأستاذ الإمام 1 / 79 .
8 - الرومي: المدرسة العقلية الحديثة في التفسير /287.
9-محمد عمارة: الإمام محمد عبده مجدداً /83.
10- المصدر السابق / 34 ..
11- المصدر السابق / 102 .
12- مصطفى غزال: دعوة جمال الأفغاني /247.
13- بسطامي محمد سعيد: مفهوم تجديد الدين /243.

14 - محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالغرب / 121 .
15- درنيقة: رشيد رضا .
16- تفسير المنار 4 / 429.
17- المصدر السابق 3 / 665.
18-الرومي: المدرسة العقلية في التفسير / 665 .
19- مفهوم تجديد الدين / 209 .
20- انظر ما كتبه محمد محمد حسين في كتابه (الإسلام والحضارة الغربية) حول هذا الموضوع .

شؤون العالم الإسلامي ومشكلاته

الملأ في تونس .. ؟

بقلم: يحيى محمد رسام

نحن نعلم - من خلال استـقـراء أحداث تاريخ الصراع بين الحق وحملته، والباطل وذويه - أنه "ليس من السهل على الذين جعلوا من أنفسهم طواغيت ومستبدين أن يلزموا الصمت أمام الحق وحملته، وهو يهــدد كيانهم، ويقرع أجراس الخطر في أبوابهم، ويرسل عاصفة على معاقلهم ليخلص الناس مـن اسـتـعـبــادهم وجبروتهم، ويعيد للإنسان كرامته وحريته اللائقة به ..".
ولذلك فهم يلجئون لأساليب متعددة، وطــرق مـتـنوعة لمحاربة الحق والمبشرين به .. وقد جاءت حقائق القرآن مؤيدة لحوادث التاريخ فمن أساليبهم :

1 - معرفة الحق .. وجحوده:

ومعناه أنه مهما كانت معرفة أهل الباطل وعلى الأخص الملأ من كبار القوم وأعوانهم، للحق الذي يبشر به ورثة الأنبياء والدعاة إلى الله أكيدة وعميقة في قلوبهم، فإن ألسنتهم ووسائل إعلامهم تجحدها، أنفة ومكرًا واستكبارًا وظلمًا: ((وجَحَدُوا بِهَا واسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وعُلُواً))..

2 - قلب الحقائق، وتزييف الوقائع:

فقد عودتنا الأحداث أن الذين في قلوبهم زيغ يقلبون الحقائق، ويزيفون الوقائع، ويجعلون الجناة ضحايا، والضحايا الحقيقيين جناة، ومجرمين! وهذه الحقيقة أوضح من أن تحتاج لشواهد وأدلة . . وسنزيدها تأكيدًا بما هو مشاهد في الأحداث المعاصرة ..

3-رمي المؤمنين بما هم متورطون فيه:

وذلك من أساليبهم -أيضًا - فبدلاً، كما يفرض المنطق، من أن توضع الأمور في مواضعها، يقومون برمي المؤمنين بما هم واقعون فيه، ومتلبسون به، فهم مثلاً الذين يمارسون كبت الحريات، وإرهاب الشعوب، والتطرف في معاملة

الخصوم والمخالفين لهم، وهم الذين يسيطر عليهم جنون العظمة، وشهوة السلطة، فظنًا منهم أن الآخرين مثلهم، يعملون من أجل تحقيق شهوة .. سواء كانت شهوة حكم أو سلطة أو شهوة مال وشهرة .. فهم لذلك يمارسون عملية الإسقاط المعروفة في علم النفس في أبشع صورها .. ويستعملون لذلك أساليب التهييج والتحريض، بكل جرأة وغفلة .. ألم يقل فرعون لموسى وهارون .. وقد جاءا يدعوانه إلى الله وعدم ظلم بني إسرائيل فرماهم بما هم بريئون منه .. بل وبما هو متلبس به إلى الأعماق . . فقال لهما: ((وتَكُونَ لَكُمَا الكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ))، ظنًا منه أن موسى وهارون لو حكما لتكبرا مثله وحاشاهما ذلك. . فهما نبيان لله منزهان عن الكبر والكبرياء..

4-ادعاء الحرص وحب الخير لشعوبهم، وإظهار الخوف على ذهاب مصالحهم:

ولنضرب المثل بفرعون أيضاً، ألم يقل وهو من هو في طغيانه، وظلمه، وتسلطه واستبداده .. ألم يقل لقومه مظهرًا حرصه عليهم، ومحذرًا لهم من موسى، ومشفقًا على مستقبلهم: ((إنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الفَسَادَ))..تمامًا نفس المنطق يكرره الطواغيت في كل مكان . . وفي كل زمان .. ((يبدل دينكم)) مؤامرة لنشر الفساد، وإثارة الفتن.. كلام يقولونه في مواجهة شعوبهم .. خوفًا من استجابة هذه الشعوب لورثة الأنبياء، أو سيطرة الحق على قلوبهم ومن ثم يفلتون من سيطرتهم والانقياد لهم .. إذًا فموسى عليه السلام يريد إظهار الفساد في الأرض، أما فرعون فإنه مخلص لشعبه يمحض له النصح، ولا يسير به إلا في الطريق السليم، سبيل الرشاد ((مَا أُرِيكُمْ إلاَّ مَا أَرَى ومَا أَهْدِيكُمْ إلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ)) وفرعون يمثل في هذا المضمار قدوة للطغاة، ورائدًا لأهل الباطل، بل لقد أصبح علمًا على من تكبر وطغى، قديماً وحديثاً .

ومن أساليبهم في مواجهة الحق وأهله اتباع أسلوب آخر وهو :

5-أسلوب الانتقاص والتسفيه والاستهزاء بورثة الأنبياء:

ولعل هذا الأسلوب من أشد أساليبهم خطرًا، وذلك أنهم "بإظهار عدم الاكتراث واللامبالاة بالدعاة إلى الله أو بذكرهم، ولكن بأسلوب الاستهانة والاستهزاء والسخرية، يهدفون إلى التهوين من أمرهم في أعين الناس والتقليل من مكانتهم أمام الشعوب، حتى لا يتجرأ أحد على الاستجابة لهم، فضلاً عن الاقتداء بهم، بل حتى لا يصغي لكلامهم، أو يلتفت لدعوتهم ولا يخفى ما في ذلك من مكر سيئ يراد به صرف الناس عن دعوة الله، وصدهم عن سبيله، بل إنه يحمل في طياته تلميحًا وإغراء للسفهاء كشأن كثير من الإعلاميين اليوم للنيل منهم وإشاعة الأباطيل والافتراءات حولهم، حتى تتزعزع الثقة فيهم، فلا يتبعهم أحد. انظر إلى ما قاله الملأ من قوم نوح عنه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام: ((قَالَ المَلأُ مِن قَوْمِهِ إنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ))

وما أجمل وأروع ما علق به أحد العلماء العاملين على هذه الآية حينما قال: "هل بعد هذا الأسلوب النابي والمبالغة في الطعن حيث لم يكتفوا برميه بالضلال وهو اتباع غير سبيل الرشاد حتى وصفوا ضلاله بأنه غاية في الوضوح والإبانة. ومرة أخرى قالوا: ((قَالَ المَلأُ الَذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وإنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكَاذِبِينَ)) "وهكذا رموه بالسفاهة وهي قلة العقل دون أن يكلفوا أنفسهم بالنظر في أدلة صدقه، ودون دليل معهم، إنما هو التكبر عن قبول الحق والاستعلاء عن الخضوع والاتباع لدين الله الذي يدعو إليه ويبشر به.

6-استشارة الأمة في قتل الدعاة إلى الله:

"ثم يأتي في آخر المطاف بعد الحرب النفسية والإعلامية الإفصاح عن ما يبيتونه للحق وأهله، من الاجتثاث من الأرض ومن أصوله، لذلك يلجئون للشعوب لتبرير فعلتهم، فيطلبون من الأمة صورة ديمقراطية وشورية نادرة، السماح لهم بقتل هؤلاء الدعاة. هؤلاء هم الدعاة .. وهم يطالبون بذلك حتى يواصل الشعب سيره في طريق الرشاد والتقدم والرفاهية، وهاهو فرعون يمارس أعلى درجات الديمقراطية ومشاورة شعبه: ((ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى ولْيَدْعُ رَبَّهُ)) وهل يحتاج فرعون الإذن من شعبه، وقد أصدر حكمه مقدمًا، وهل الشعب في وضع يجعله قادرًا على ممارسة حقه في إبداء رأيه في أي قضية تخصه، أم أنه المكر وخداع الشعوب !

7-تشابه الأساليب، وتشابه القلوب :

وكما رأينا وكما بين الله لنا تماثل أساليب أصحاب الباطل، قديماً وحديثًا في الصد عن سبيل الله حتى لكأن أولهم أوصى آخرهم ((كَذَلِكَ مَا أَتَى الَذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)) ولكن الآية تشير إلى وجود علة أخرى غير التواصي، وهي الطغيان فمن طبيعته عندما يسيطر على القلوب والنفوس، فإنه ينتج عنه نفس الأساليب وتصدر عنه نفس الانفعالات لمقاومة ومحاربة حملة الحق، وتحذير الناس منهم، ولكن القرآن في موضع أخر يذكر علة أخرى ((تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ)) إذًا فهو الطغيان، وتشابه القلوب في الزيغ والضلال !

وماذا عن الملأ في تونس ..؟

إذا تأملنا ما قاله الملأ في تونس في وسائل إعلامهم سنجد دون عناء أنهم قد كرروا ما قاله الملأ من قبلهم،في مواجهة الدعوة، وورثة الأنبياء، ويكفى مثلاً لما يردده الإعلام التونسي ضد الدعاة إلى الله من شباب الاتجاه الإسلامي ما نشرته جريدة العمل التونسية في عددها الصادر في 4 صفر 1408 / 7 2 سبتمبر 1987 وفي أماكن مختلفة من العدد، وإن كان أمكر تلك المقالات ما ورد في الصفحة الأولى تحت عنوان "حتى لا تكون فتنة".

وقد حشرت المجلة كل الشبهات والدعايات التي مارسها وقالها كل أعداء دين الله على مر العصور، مما ذكرناه في أول هذا المقال، ابتداء :
1- من اتهامهم بالتخطيط لإسقاط النظام .
2- اتهامهم بقلة العقل والسفاهة، وعدم القدرة على التفكير .
3- وبأنهم أصيبوا بجنون العظمة، والتكبر والهوس في السلطة.
4- وبأنهم يريدون إقامة نظام على غرار النظام الإيراني الهمجي.
5- وبأنهم مثيرو فتن، ومظهرو فساد، وأباحوا ما حرم الله من سفك الدماء .
6- ثم وصفهم العودة إلى الحكم الإسلامي عودة إلى عهود التخلف والرجعية وعهود الأمير والحاشية و الحريم..!
وأخيرًا بعد هذا كله بالإرهاب والتطرف والشذوذ في فهم الدين.
ثم تأتي الخلاصة وهى المطالبة بالقضاء عليهم من الجذور، فهم ثعبان يبث سمومه، ولا حل إلا ذلك إن أراد الشعب التونسي أن يسير على درب الرشاد.
ألا ترى معي أن الملأ في تونس يفكرون بعقلية فرعون وملئه، ويرمون الدعاة بما رمى به موسى، ويظهرون الحرص على مصالح الشعب والسير به في طريق الرشاد، طريق هامان وفرعون، وبعقلية الملأ والطواغيت، والمتكبرين في كل زمان ومكان .

تساؤلات :

والآن فهل يمكن أن يكون الدعاة إلى الله من أصحاب الاتجاه الإسلامي في تونس هم وراء ما زعمته السلطة ووسائل إعلامها وما أسمته بالمغامرة الفاشلة لإسقاط نظام الحكم، في مسرحية هزلية.
إن الوقائع والأحداث التي سبقت المسرحية الأخيرة أثبتت بوضوح أن الاتجاه الإسلامي أبعد ما يكون عن مثل هذه الأساليب، وإن تحليلات المطلعين والمراقبين تشير إلى أن هنالك بعض الفئات من غير الاتجاه الإسلامي وبمعاونة بعض أجهزة الحكومة أحيانًا وبرضاها وعلى عينها أحيانًا أخرى وراء كثير من الحوادث هناك.
ثم لماذا الربط بين الاتجاه الإسلامي والحكومة الشيعية في إيران، وموقفهم وبياناتهم معروفة منها، والعالم كله أصبح يعرف موقف الحركة الإسلامية عالميًا من إيران وثورتها، لولا أنه المكر السيء ضد الاتجاه الإسلامي في تونس .
هل العودة للحكم الإسلامي عودة لعهود التخلف والحريم ؟! وهل مطالبة الاتجاه الإسلامي للعودة للحكم الإسلامي وتطبيق شرع الله يمكن أن يسمى تخلفًا ورجعية وعودة لعهد الأمير وحريمه؟! ومن قال ذلك؟ وهل يبقى مسلمًا من يصف حكم الإسلام، وهو حكم الله، بالتخلف؟ أو يستهزئ بشيء من أوامر الله؟ وهل إذا طالب الإسلاميون بالحرية السياسية لهم كغيرهم ودافعوا عن مواقفهم صاح بهم المغرضون أنتم مثيرو فتن ولا عقل لكم!.

ثم من هم الذين يفهمون الإسلام على الوجه الصحيح وأنه "دين السماحة والاعتدال" هل هم الأقلية من الحزب الاشتراكي هناك الذي لا يمثل إلا نسبة ضئيلة من الشعب التونسي المسلم تحتكر لنفسها مواقع السلطة والنفوذ؟ وتمارس أبشع صور الإرهاب والتطرف من تكميم الأفواه، واستصدار أحكام السجن المؤبدة، والإعدام ضد الدعاة إلى الله، من أبناء الشعب، ومارست ولازالت إقصاء الإسلام عن سائر مجالات الحياة، واستبدلته بالأنظمة والقوانين العلمانية الملحدة. هل هي هذه الفئة أم هم العلماء المجاهدون والمخلصون من أبناء تونس ومعهم الأكثرية من الشعب التونسي المسلم .
وهل إذا هب هؤلاء للمطالبة بالحريات وتوسيع قاعدة الديمقراطية والسماح للشعب بممارسة حقوقه السياسية وحماية دينه وأخلاقه! يقال لهم مثيري فتن ولا عقل لهم، وإرهابيون ومتطرفون، ويقال للمستبدين والمنحرفين حريصون على الأمة ومصالحها، وأدرى بما يعود عليها بالخير والصلاح والرشاد.
إن ذلك هو التعامي عن الحق بل إنه قلب الحق باطلاً والباطل حقاً.
ومن هو المتطرف والإرهابي والشاذ في فهم الإسلام، هل هو الفئة الواعية المجاهدة أم العلمانيون والاشتراكيون الذين عزلوا الإسلام عن الحياة، والذين يرون في أداء فرائض الصيام مثلاً تعطيلاً للإنتاج؟!
ثم نحن نسأل هل الحزب الحاكم في تونس لازال يحكم تونس نتيجة فوزه في انتخابات شعبية حرة؟ هذا على مسايرة أنه قد جاء إلى الحكم قبل ثلاثين سنة نتيجة قيادته لحركة جهادية. هل أعطى الشعب التونسي رأيه للحزب الاشتراكي، وصوت له، أم أن مخططات استعمارية أجنبية هيأت له الأوضاع وقوى عالمية من شرق وغرب ساندته ليحقق لها بعض أهدافها، وهو القضاء على الإسلام حصن الأمة الذي تحتمي به، ضد مؤامرات أولئك المستعمرين وتلك القوى العالمية .

وكلمة مخلصة لهؤلاء:

نذكرهم بها ونقول لهم قبل أن يقوم الناس لرب العالمين في يوم لا ريب فيه، ولا ينفع فيه ومعه الندم.
إن الإسلام ليس دعوى باللسان وفي وسائل الإعلام، وليس شارة يتزين بها الإنسان أو حتى شعائر تؤدى حينما نشاء! إنما الإسلام التزام بما جاء به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من عند ربه، الإسلام تطبيق شامل لكل ما في القرآن والسنة، الإسلام التزام في حياة الإنسان الشخصية، والتزام في نظام المجتمع، والاقتصاد والسياسة، وكل نواحي حياة الناس .
ثم نذكرهم بأن العودة لشريعة الله التي لا يعتريها نقص البشر ولا هوى البشر ولا جهل البشر، لأنها الشريعة الكاملة الشاملة المرنة الصالحة لكل زمان ومكان، ليس عودة بالمجتمع لعهود التخلف والرجعية، وليست الدعوة

للاحتكام للقوانين التي صنعها للبشر رب البشر؛ رجوعًا بالمجتمعات إلى عصور الانحطاط والكبت والجهالة .
ثم لا ننسى أن نقول بأن على الجميع أن يدرك بأن هذا الأسلوب من القتل والتعذيب لن يجدي فتيلاً، ويكفي أمتنا تجارب مريرة، أخفقت فيها كل المحاولات التي استمرت لأكثر من قرن في مواجهة الحركة الإسلامية .
((يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ واللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ ولَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ)) وإن الله مظهر دينه، على كل دين ولو كره المشركون. فهل من معتبر؟(*).

الهوامش:

*- كتب هذه التحليل قبل التغيرات الأخيرة التي حصلت في تونس.

أدب وتاريخ

حول حروف الجر

منصور الأحمد

-1-

من منا لا يعرف أكثر حروف الجر؛ ولا يعرف أثرها على الاسم وهو جره بالكسره ، إذا كان مفردًا ، وبالياء إذا كان مثنى أو جمعاً ، وأنها من علامات الأسماء ، فلا تدخل إلا عليها؟
ولكن ، ما سبب تسميتها بحروف الجر؟
السبب في ذلك لأنها تجر معنى الـفـعـل قـبـلـهـا إلى الاسم بعدها ، وتسمى أيضاً "حروف الإضافة" ، لأنها تضيف معاني الأفعال قبلها إلـى الأسماء بعدها.
وذلك لأن من الأفعال ما لا يقوى على الوصول إلى المفعول به ، فيتقوى بهذه الحروف ، كما تقول :
(جلست على الكرسي) و(رحبت بسعيد) ولو قـلـت: (جلست كرسياً) و (رحبت سعيدًا) لم يصح لضعف الفعل اللازم عن الوصول إلى المفعول به ، ما لم يستعن بحرف الجر.

-2-

كما أن استعمال حروف الجر يسبب كثيًرا من الـصـعـوبات لدارس اللغة الإنكليزية؛ فهو كذلك في اللغة العربية ، ويقع الكاتبون في أخطاء كـثـيـرة فـي استـعمالهم لهذه الحروف، حيث إن اختيار كل حرف لكل معنى من معانيه المتعددة يتطلب دقة ومراناً لا يتأتى إلا من خلال القراءة الكثيرة للأساليب الصحيحة ، وملاحظة ذلك عند الكتابة أو الارتجال.
وزيـادة فـي الإيـضـاح نقول: إن من الأفعال ما يختلف معناه باختلاف حروف الجر التي يتعدى بها ، فمثلاً : الفعل (رغب) فعل لا يتعدى بنفسه ، بل يحتاج

إلى حرف جر يحدد معناه ، ويختلف هذا المعنى باختلاف حرف الجر الذي يعقبه :
فقولك: رغبت في الأمر .
غير قولك: رغبت عنه .
وهذا غير قولك: رغبت إليه أن يفعل كذا ، وهكذا .
ولهذا لا يصح أن يقال: (رغبت أن أفعل كذا) لأن من يسمع ذلك لا يدري: هل رغبت في الفعل ، أم في تركه؟

-3-

تقرأ أحيانًا في بعض الكتابات :
(ذهبت إلى عنده) وهـذا خـطـأ شائع لأن الظروف (لدى ، لدن ، عند) لا تجر إلا بحرف الجر (من) ، والصواب أن تقول: (ذهبت إليه).

-4-

كثيرًا ما يقع الخلط في الاستعمال بين (اللام) و (إلى) من حروف جر .
فمثلاً: اتجه المصلي للقبلة . هذه الدار إلى فلان .
وهذان الاستعمالان كلاهما خطأ، والصحيح فيهما أن يقال:
اتجه المصلي إلى القبلة . هذه الدار لفلان .
وكذلك يقع الخلط كثيرًا بين "الباء" و "في".
فمثلاً: جلست بالسيارة . كتبت في القلم .
كلتاهما خطأ ، والصواب:
جلست في السيارة . كتبت بالقلم .
وإذا أردت أن ترتقي بأسلوبـك: كتابة وخطابة وحديثًا ، من حيث دقة استعمال حروف الجر فراقب ورود هذه الـحــروف فـي القرآن الكريم ، وأمعن النظر في الأفعال التي تعدت بهذه الحروف ، أو المشتقات التي تعلق بها الجار والمجرور ، وستجد ذلك مرجعًا قريبًا وغاية في النفع بإذن الله.

شروط لا إله إلا الله

عثمان جمعة ضميرية

إن كلمـة الـتـوحـيد ، التي سبق الحديث عن معناها ، جعلها الله تعالى عنوان الدخول في الإسلام ، وثمن الجنة ومفتاحها ، كما جعلها سبب النجاة من النار ومغفرة الذنوب .
وتواردت أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذه المعاني: فمنها: ما جعل الإتيان بالشهادتين سببًا لدخول الجنة ، وعدم احتجاب قائلها عنها ، فإن النار لا يخلد فيها أحد من أهل التوحيد الخالص ، وقد يدخل الجنة ولا يحجب عنها إذا طهر من ذنوبه بالنار :

فعن عبادة بن الصامت ، رضي الله عنه ، قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: »من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، وأن الجنة حق والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل«(1) ، وفي رواية: »أدخله الله الجنة من أي أبواب الجنة الثمانية شاء«.
وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول-صلى الله عليه وسلم- قال: »يا أبا هريرة اذهب بنعلي هاتين -وأعطاه نعليه - فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله ، مستيقنًا بها قلبه ، فبشره بالجنة«(2).
وعنه أيضاً ، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: »أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، لا يلقى الله عبد غير شاك ، فيحجب عن الجنة«(3) ، وفي رواية له أيضاً: »إلا دخل الجنة«.
وعن عثمان ، رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: »من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة«(4).
وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال:»ما من عبد قال لا إله إلا الله ، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة« قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال:»وإن زنى وإن سرق ثلاثاً« ثم قال في الرابعة: »على رغم أنف أبي ذر« قال: فخرج أبو ذر وهو يقول: وإن رَغِمَ أنف أبي ذر(5).
ومعنى هذا الحديث: أن الزنى والسرقة لا يمنعان دخول الجنة مع التوحيد ، وهذا حق لا مرية فيه ، وليس فيه أنه لا يعذب عليهما مع التوحيد(6) ، ففي مسند البزار عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: »لا إله إلا الله نفعته يومًا من دهره ، يصيبه قبل ذلك ما أصابه«(7).
ومن الأحاديث النبوية ما جاء بيانًا لتحريم دخول النار على من أتى بالشهادتين ، وهذا كقوله عليه الصلاة والسلام في حديث معاذ رضي الله عنه : »ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار«(8).
وفي حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه ، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: »إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله ، يبتغي بذلك وجه الله«(9) إلى غير ذلك من الأحاديث النبوية الشريفة(10).
وقد يصاب بعض الناس بالغفلة عن حقيقة التوحيد وشرط النجاة ، ويغتر بكلمة يديرها على لسانه ، دون أن يفقه معناها ، يظنها مفتاحًا للجنة ، بمجرد نطقها باللسان ، غافلاً عن شروطها التي ينبغي أن تتحقق ، ومقتضياتها التي ينبغي أن يعمل بها ، لتكون مفتاحًا صالحًا لفتح أبواب الجنة الثمانية.
وشهادة التوحيد هذه ، سبب لدخول الجنة ، والنجاة من النار ، ومقتضى لذلك ، ولكن المقتضى لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه وانتفاء موانعه ،

فقد يختلف عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه ، أو لوجود مانع من الموانع ، وهذا قول الحسن البصري ووهب بن منبه ، رحمهما الله.
فقد قيل للحسن البصري رحمه الله؛ إن أناسًا يقولون: من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة؟ فقال: من قال لا إله إلا الله ، فأدى حقها وفرضها دخل الجنة .
وقال للفرزدق وهو يدفن امرأته: ما أعددت لهذا اليوم؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله ، منذ سبعين سنة ، فقال الحسن: نعم العدة ، لكن لـ"لا إله إلا الله" شروطاً ، فإياك وقذف المحصنة!
وقيل لوهب بن منبه: أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: بلى ، ولكن ما من مفتاح إلا له أسنان، فإن جئت بمفـتاح له أسـنـان فـتح لك، وإلا لم يفـتح لك(11).
ويدل على صحة هذا القول: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- رتب دخول الجنة على الأعمال الصالحة في كثير من النصوص: فعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه،أن رجلاً قال: يا رسـول الله أخـبـرني بـعـمـل يدخلني الجنة. فقال: »تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصل الرحم«(12).
وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رجلاً قال: يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة. قال: »تعبد الله لا تشرك به شيئًا ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان« فقال الرجل: والذي نفسي بيده ، لا أزيد على هذا شيئاً ، ولا أنقص منه. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: »من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا«(13).
وقد تواردت مع ذلك آيات وأحاديث تبين توقف دخول الجنة والنجاة من النار على من فعل الفرائض واجتنب المحارم ، فصارت تلك الأحاديث السابقة مفسرة مبينة ، وينبغي أن يؤخذ بالبيان والمبين معًا ، ولا يجوز إعمال بعض النصوص والأدلة وإهمال سائرها(14).
ومن القواعد المقررة: أن المطلق يحمل على المقيد ، فإذا جاءت نصوص مطلقة ، وجاءت نصوص أخرى متحدة معها في الحكم والسبب ، فإنه يحمل النص المطلق على المقيد. والأحاديث التي جاءت تبين أن دخول الجنة وتحريم النار معلق على شهادة "أن لا إله إلا الله" ، وهذه الأحاديث المطلقة جاءت أحاديث أخرى تقيدها. ففي بعضها:
"من قال:» لا إله إلا الله مخلصًا ...« ، وفي بعضها: »مستيقناً بها قلبه . .« وفي بعضها: »صدق لسانه ..« ، وفي بعضها: »يقولها حقا من قلبه ..«. . الخ.
وكذلك علقت الأحاديث دخول الجنة على:"العلم بمعنى لا إله إلا الله"
ونصوص أخرى تبين الثبات على هذه الكلمة ، ونصوص أخرى تدل على وجوب الخضوع لمدلولها. . الخ.

ومما سبق كله استنبط العلماء رحمهم الله تعالى شروطًا لابد من توافرها، مع انتفاء الموانع، حتى تكون كلمة "لا إله إلا الله" مفتاحًا للجنة ، وهذه الشروط هي أسنان المفتاح ، ولابد من أخذها مجتمعة ، فإن شرطًا منها لا يغني عن سائر الشروط .
ولعل هذه الشروط تكون واضحة من الإشارات التي سنشير إليها في هذه العجالة ، فاحرص عليها - أيها المسلم - وتحقق بها ، لئلا تقف أمام باب الجنة فترد ، لأنه لا يفتح لك!
1- إن لكل شيء حقيقة ، ولكل كلمة معنى ، فينبغي أولاً: أن تعلم معنى كلمة التوحيد "لا إله إلا الله" علمًا منافيًا للجهل بها ، في النفي والإثبات ، فهي تنفي الألوهية عن غير الله تعالى وتثبتها له سبحانه ، فلا معبود بحق إلا الله ، وقد سبق ذلك وافيا في بيان "مفتاح الجنة"سابقًا .
ومن الأدلة على هذا الشرط: قول الله تعالى: ((فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إلَهَ إلاَّ اللَّهُ واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ)) [سورة محمد:19].
((شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إلَهَ إلاَّ هُوَ والْمَلائِكَةُ وأُوْلُوا العِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ)) [آل عمران/18] ((إلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وهُمْ يَعْلَمُونَ)) [الزخرف:86].
وأخرج مسلم عن عثمان رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: »من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة «. ويكتمل هذا الشرط بما يليه ، وهو الشرط الثاني .
2- اليقين المنافي للشك: ومعنى ذلك أن تستيقن يقينًا جازمًا بمدلول كلمة التوحيد ، لأنها لا تقبل شكًا ، ولا ظنًا ، ولا ترددًا ولا ارتيابًا ، بل ينبغي أن تقوم على اليقين القاطع الجازم. فقد قال الله تعالى في وصف المؤمنين الصادقين:
((إنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ ورَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)) [الحجرات:15].
فلا يكفي مجرد التلفظ بالشهادتين، بل لابد من استيقان القلب، والبعد عن الشد، فإن لم يحصل هذا اليقين فهو النفاق، والمنافقون هم الذين ارتابت قلوبهم، قال الله تعالى: ((إنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ وارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ)) [التوبة:45].
وقد سبق آنفًا حديثان في ذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وفيهما: »أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد ، غير شاك فيهما إلا دخل الجنة« وفي رواية »فيحجب عن الجنة«. »ومن لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه..«.
3- وإذا علمت، وتيقنت، فينبغي أن يكون لهذا العلم اليقيني أثره، فيتحقق الشرط الثالث وهو: القبول لما اقتضته هذه الكلمة ، بالقلب واللسان: فمن رد دعوة التوحيد ولم يقبلها كان كافرًا ، سواء كان ذلك الرد بسبب الكبر أو العناد أو الحسد ، وقد قال الله سبحانه وتعالى عن الكفار الذين ردوها

استكبارًا ((إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ؟)) [الصافات:35 - 36].
أما المؤمنون الذين قبلوا هذه الكلمة وعملوا بمقتضاها فلهم النجاة عند الله تعالى ، وعدًا منه ، لا يخلف الله وعده: ((ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقاًّ عَلَيْنَا نُنْجِ المُؤْمِنِينَ)) [يونس:103].
وهم أصحاب المثل الطيب ، الذين ينتفعون بما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام من الهدى والعلم. فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، عن- صلى الله عليه وسلم- قال: »مثل ما بعثني به الله من الهدى والعلم ، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا ، فكان منها نقية قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا. وأصاب منها طائفة أخرى ، إنما هي قيعان، لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً. فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به «(15).
4- أما الشرط الرابع: الانقياد للتوحيد الذي دلت عليه هذه الكلمة العظيمة ، انقيادًا تامًا ، وهذا الانقياد والخضوع هو المحك الحقيقي للإيمان وهو المظهر العملي له .
ويتحقق هذا ويحصل بالعمل بما شرعه الله تعالى ، وبترك ما نهى عنه ، وذلك هو الإسلام حقيقة ، إذ هو: أن يسلم العبد ويستسلم بقلبه وجوارحه لله تعالى ، وينقاد له بالتوحيد والطاعة ، كما قال سبحانه: ((وَمَن يُسْلِمْ وجْهَهُ إلَى اللَّهِ وهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الوُثْقَى)) [لقمان:22].
وأقسم سبحانه وتعالى بنفسه أنه لا يؤمن المرء حتى ينقاد لحكم الله وحكم رسوله: ((فَلا ورَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)) [النساء:65].وحتى ميول الإنسان وما يهواه ، ينبغي أن يكون من وراء ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- وتابعًا له: »لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به«(16) ، وهذا هو تمام الانقياد وغايته .
5- الشرط الخامس: الصدق في قول كلمة التوحيد ، صدقاً منافيًا للكذب والنفاق ، حيث يجب أن يواطئ قلبه لسانه ويوافقه ، فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم ، ولكن لم يطابق هذا القول ما في قلوبهم ، فصار قولهم كذبًا ونفاقًا مخالفًا للإيمان ، ونزلوا في الدرك الأسفل من النار: ((يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ)) [الفتح:11] ((وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (8) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)) [البقرة:8-10]. . في آيات كثيرة وسور بمجملها في القرآن الكريم تتحدث عنهم .

وفي الصحيحين: »ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله . . صدقًا من قلبه إلا حرمه الله على النار« فاشترط الصدق من القلب ، كما اشترطه في قوله لضمام بن ثعلبة:»إن صدق ليدخلن الجنة«(17).
6- المحبة ، وهي الشرط السادس فحب المؤمن هذه الكلمة ، ويحب العمل بمقتضاها ويحب أهلها العاملين بها ، وإلا لم يتحقق الإيمان ولم تكتب له النجاة ، ومن أحب شيئًا من دون الله فقد جعله لله ندًا: ((ومِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ والَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُباً لِّلَّهِ)) [البقرة:165].
وعلاقة حب العبد ربه تقديم محابه وإن خالفت هواه ، وموالاة من والى الله ورسوله ، ومعاداة من عاداه واتباع رسوله -صلى الله عليه وسلم- واقتفاء أثره وقبول هداه ، وهذه كلها شروط في المحبة لا تتحقق إلا بها(18) ، وهى مؤشر على حب الله للعبد بعد ذلك .
ومتى استقرت هذه الكلمة في النفس والقلب ، فإنه لا يعدلها شيء ، ولا يفضل عليها ، فإن حبها يملأ القلب فلا يتسع لغيرها ، وعندئذ يجد حلاوة الإيمان: »ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواه ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار «(19).
وحتى لو تحققت تلك الشروط السابقة كلها ، ولكنها فقدت الروح فيها وفقدت سبب القبول عند الله ، فإنها لا تنفع صاحبها ما لم يحقق سبب ذلك القبول ، وهو الشرط السابع .
7- الإخلاص ، و معناه: صدق التوجه إلى الله تعالى وتصفية العمل بصالح النية ، من كل شائبة من شوائب الشرك وألوانه.
وقد تواردت الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة ، تؤكد هذا الشرط ، وتجعله سببًا لقبول الأعمال عند الله تعالى. قال الله سبحانه وتعالى: ((ومَا أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ويُقِيمُوا الصَّلاةَ ويُؤْتُوا الزَّكَاةَ وذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ))[البينة:5] ((فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ)) [الزمر:2].
وفي حديث عتبان بن مالك عن النبي -صلى الله عليه وسلم- »إن الله حرم على النار من قال:لا إله إلا الله ، يبتغي بذلك وجه الله عز وجل(20).
والآيات والأحاديث في الإخلاص كثيرة جدًا ، فهو سبب القبول عند الله عز وجل ، فلا يقبل الله تعالى من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه وموافقًا لشرعه .
8-ومع هذه الشروط مجتمعة ، لابد من الإقامة على هذه الكلمة ، ليختم للعبد بها ختامًا حسنًا ، فإنما الأعمال بالخواتيم ، ففي حديث مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: » إن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل الجنة ، ثم يختم له عمله بعمل أهل النار ، وإن

الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل النار ، ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة «
وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، عند الشيخين ». . فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها«.
وقد أمر الله تعالى بالإقامة على الإسلام والتوحيد: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ)) [آل عمران:102].
وقد جاءت الأحاديث الشريفة تبين هذا المعنى: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- »من مات يشرك بالله شيئًا دخل النار« وقلت أنا: من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة«(21).
وفي حديث أبي ذر: » ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة« (22).
فاحرص أيها المسلم على كلمة التوحيد بشروطها تلك ، واحذر من كل ما ينافيها ، فإن ما ينافيها ويوقع في الشرك قد يكون أخفى من دبيب النمل.
قال ابن القيم رحمه الله ، في قصيدته النونية ، مشيرًا إلى أسنان هذا المفتاح الذي تفتح به أبواب الجنة ، وهي العمل بشرائع الإسلام ، وتحقيق تلك الشروط السابقة ، فقال :

هذا ، وفتحُ الباب ليس بمـمـكن إلا بمـفـتـاح عـلـى أسـنـان
مفتاحه بشهادة الإخلاص والتو حيد ، تلك شـهادة الإيمان
أسنانه الأعمال،وهو شرائع الـ إسلام ، والمفـتـاح بالأسـنـان
لا تـلـغـين هذا المـثـال فـكم به من حل إشكال لذي العرفان

الهوامش:

1- أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء ، ومسلم في كتاب الإيمان.
2- أخرجه مسلم في الإيمان .
3- المرجع السابق .
4- المرجع السابق .
5- أخرجه البخاري في كتاب اللباس ، ومسلم في الإيمان.
6- كلمة الإخلاص وتحقيق معناها ، لابن رجب ص 12.
7- قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح ، مجمع الزوائد 1/17.
8- أخرجه البخاري في العلم ، ومسلم في الإيمان.
9- قطعة من حديث أخرجه البخاري في الصلاة ، ومسلم في المساجد.
10 - انظر: تهذيب مدارج السالكين لابن القيم: ص 187.
11- أخرجه البخاري تعليقًا في الجنائز .
12- أخرجه البخاري في الأدب ، ومسلم في الإيمان .

13- أخرجه البخاري في الزكاة ، ومسلم في الإيمان .
14 - انظر: كلمة الإخلاص وتحقيق معناها لابن رجب الحنبلي ص 31-22 فهذه المعاني مأخوذة منه.
15- أخرجه البخاري ، كتاب العلم ، ومسلم ، كتاب الفضائل.
16 - قال النووي في الأربعين النووية: حديث حسن صحيح ، جامع العلوم والحكم ، ص 364-365.
17- أخرجه البخاري في الزكاة ، ومسلم في الإيمان .
18- معارج القبول للشيخ حافظ حكمي رحمه الله 1/383.
19- متفق عليه .
20- متفق عليه .
21-22- أخرجهما الشيخان .

قراءات حول العقل العربي

طارق عبد الحليم

منذ بداية السبعينات ، وعقيب هزيمة1967 تزايدت تلك الدراسات والكتب التي تتحدث عن العقل العربي ، ماضيه المنصرم ، وحاضره المشهود ، ومستقبله المنشود ، وينتمي أغلب أصحاب تلك الدراسات إلى اتجاهين رئيسيين :

أولهما: المنتمون لما يسمى التيار القومي الداعون إلى وحدة العرب على أساس القومية المشتركة .

ثانيهما: المنتمون إلى الاتجاه التغريبي ، بشكل عام ، والذي يستقي نظرياته وآراءه من الغرب ، وفي إطار ذلك الفكر الغربي .

والطرفان وإن اختلفا في الأفكار والنظرات ، وفي الأهداف والمشارب إلا أنهما اتفقا على ضرورة الحديث عن "العقل العربي" كل من زاويته الخاصة ، في تلك الآونة التي أعقبت انحسار الفكر القومي بهزيمة 67 من ناحية ، وفقدان الثقة في المعطيات الفكرية الغربية من ناحية أخرى ، وما ألجئوا إلى ذلك إلا نتيجة لتصاعد التيار الإسلامي بشكل عام . . فكانت المصلحة الجامعة بينهما هي الحديث عن العقل العربي والذي يقصد به العقل الإسلامي ، وإن عبر عنه "بالعربي" تحاشيًا للصدام المباشر مع "الإسلام" من ناحية ، ودسًا للسم في الدسم من ناحية أخرى .

وإنك لتعجب عجبًا لا يكاد ينقضي حين تقرأ كتابًا كاملاً لواحد من هؤلاء الكتاب ، يتناول فيه الفكر العربي ، والعقلية العربية ، وصلة واقع الأمة بماضيها . . إلى آخر تلك الموضوعات التي يدندنون حولها فلا تكاد تجد ، ولو مرة واحدة ، كلمة "الإسلام" في طول الكتاب وعرضه! إنما هي كلمات مثل "التراث" ، "الماضي" ، "الدين" ، "السلف " ليس إلا!

وإذن أمر يشتم منه رائحة الهوى ، ولو كان بحثًا عن الحقيقة خالصاً لوجه الحق . ، لكان ذلك الحديث من أهم ما تتناوله الأقلام في هذه الآونة ، فمما لاشك فيه أن "العقل العربي" يحتاج إلى الدرس والتحليل من زاوية إسلامية أولاً ، ومن زاوية عربية ثانيًا ، إلا أن ذلك الإخلاص يظهر ناقصًا في تلك الدراسات من حيث ألبست أهدافها لباسًا عربيًا لتقف موقفًا وسطًا يكفل لها أعينًا تقرأ وآذانًا تسمع ، وعقولاً تخدع .
من تلك الدراسات كتب ثلاث سنتناولها في هذه المراجعات كمثال دال على ما وراءه :
بنية العقل العربي: د . محمد عابد الجابري.
خطاب إلى العقل العربي: د . فؤاد زكريا.
قصة عقل: د . زكي نجيب محمود .

-1-

تذهب تلك الدراسة التي قدمها الدكتور المغربي محمد عابد الجابري كمحاولة لتحليل بنية العقل العربي ، إلى تحديد طرق الفهم المختلفة التي استطاع العقل العربي خلال مرحلة نموه ونهضته أن يؤسس عليها معارفه ، والتي تتلخص في ثلاثة طرق مختلفة المنهج ، تعتمد: إما على تحليل "الخطاب"(13) واستنباط الألفاظ من المعاني ، كما سلك أهل اللغة والبيان أو علماء الأصول والمتكلمون بمختلف اتجاهاتهم ، أو على "الإشراق" والفهم الباطني للألفاظ ، كما فعلت الصوفية من ناحية أو الشيعة والباطنية من ناحية أخرى (251) ، وآخرها الاتجاه الفلسفي الذي ينطلق فيه العقل من التصورات الذهنية البحتة لإقامة بناء نظري ثم محاولة إقامة البرهان عليه ، كما فعل الفلاسفة المنتسبون للإسلام .
وبشكل عام - وبرغم جدية الموضوع وأهميته - يمكن القول بأن الدراسة لم تقدم جديدًا في مجال فهم العقل العربي ، بل كانت مجرد إعادة تصنيف لتلك الفرق المختلفة التي سلكت مسالك عقلية مختلفة ، لأسباب عديدة ، محاولة أن تجد في الإسلام ما يؤيد مذاهبها ، دون التفات إلى حقيقة الإسلام كما فهمه أهل السنة والجماعة ، الذين يعي المؤلف تمامًا الفرق بينهم وبين سائر الفرق التي تحدث عنها(205 ، 66) بينما لم يقدم تحليلاً لمذهبهم البتة ، ولا نملك إلا أن نسجل على المؤلف تحيزًا ظاهرًا لبعض الاتجاهات التي توافق منحاه العقلي بشكل عام ، فالمعتزلة في رأيه ، " كانوا وظلوا دائمًا ، الممثلين الرسميين والمخلصين للبيان والنظام المعرفي البياني" (54) ، كما أنهم الرواد الأوائل لما عرف "بعلم البلاغة" (64) وهم أصحاب "الرؤية العالمية " في الفكر الإسلامي (177) ، بينما أهل السنة الأوائل - يعني الصحابة والتابعين - هم "النصيون" الملتزمون بحرفية النصوص ، فالعقل عند أهل السنة "يعني استشعار النص وهو ما يسمونه بالاجتهاد"! (53) وهم ، - أي أهل السنة -

يتعاملون مع النصوص على أساس من "مجرد التقليد والاتباع وليس على أساس من التنظيم والتنظير كما فعل المعتزلة" (66).
والكتاب - بعد - مليء بالتناقضات ، وضعف التحقيق ، فالمؤلف - في تعاطفه مع المعتزلة - يذهب إلى أن المعتزلة كانوا أشد وطأة على الشيعة من أهل السنة (66) بينما تجاهل حقيقة أن الاعتزال نفسه قد ذاب في مذهب الشيعة ، بلى إنه حين أراد تقرير وجهة نظر المعتزلة الأوائل في العقيدة ، اعتمد على القاسم الرسي الشيعي الزيدي لبيان ذلك المذهب (177). ذلك التعاطف هو ما يوضح أسباب هجومه على "سلطة السلف"(133 ، 562) التي قرنها بسلطة "الماضي" "والعادة" ، كذلك موقفه من الإجماع سواء في اللغة والنحو (127) أو في الفقه والتشريع ، بل اعتباره أن أصل الإجماع هو مصدر القهر السياسي الذي عانت منه الأمة الإسلامية في تاريخها (134)! ويذهب لإثبات مذهبه ذاك إلى أن خبر الواحد إنما يستمد قوته من إجماع الصحابة (125) وسلطة السلف ليس إلا! ويهاجم القياس كأصل شرعي ، كما يتبين من طريقة مناقشته عند الأصوليين (137) مقارنة بما يقابلها من تعاطف مع ظاهرية ابن حزم التي يصورها على أنها تحرر من سلطة السلف ، ومن القياس ، وأنها دعوة للاجتهاد المبني على العقل! والتعامل المباشر مع النفر (515 ، 569) دون وساطة السلف - الصحابة والتابعين - أو غيرهم من العلماء والأئمة.
والحق أن الكاتب قد دخل مدخلاً وعرًا في مناقشة مسائل فقهية وأصولية متخصصة ، تخرج عن مجال تخصصه كباحث في "الفلسفة" ، أما عن مفهوم السببية كما تقرره عقلية العربي - حسب رأي المؤلف - فإن البيئة العربية الصحراوية توجه العقل إلى عدم ربط السبب بالنتيجة!(243) ، وأنها تنشيء تلقائيًا ذلك المفهوم الذي ظهر لدى الأشاعرة في تفسير ارتباط السبب بالنتيجة على أنه حكم العادة الجارية بل إنه جعل المعتزلة كذلك من دعاة مذهب "العادة" - كالأشاعرة تمامًا - ليكتمل مفهوم النظرة الجزئية التي تولدها البيئة الصحراوية . . وهي نتيجة تؤكد خطورة تبني قوالب فكرية مسبقة ، وإخضاع الأفكار والوقائع لمقرراتها مهما استلزم ذلك من اعتساف التحليل واضطراب النتائج ، إلى جانب تجاهله لمفهوم السببية عند أهل السنة بشكل تام (1).
ثم يقدم المؤلف للعقلية العربية حلاً مبنيًا على ضرورة القضاء على سلطة السلف في حياة الأمة ، والخروج من قيد اللفظ والنص ، وإسقاط القياس كمسلك عقلي للاستنباط واعتماد "العقل" وحده بديلاً ، من خلال عصر تدوين جديد يقوم على فكر الرباعي "المغربي" الأندلسي (ابن حزم - ابن رشد - ابن خلدون - الشاطبي).

أما الكتاب الثاني ، فهو عبارة عن عدة مقالات مجموعة ، صدرت في مجلة العربي للكاتب د. فؤاد زكريا ، في الفترة ما بين 1976-1987 تحت عنوان "خطاب إلى العقل العربي". وتناول هذه المجموعة من المقالات عدة موضوعات ، قسمها صاحبها إلى ثلاثة أقسام :
1- : دافع الثقافة العربية.
2-:الفكر والممارسة في الوطن العربي .
3-: أضواء على العالم المعاصر .
والكاتب يعكس بشكل واضح خلطًا وقصورًا في فهم الإسلام ، وتصور طبيعة العلاقات التي يجب أن ينبني عليها المجتمع المسلم.
فعلى الرغم من أن الكاتب قد تعرض لبعض الأسباب الرئيسية التي نشأ عنها الخلل الحالي في المجتمعات الإسلامية ، كالحكم الفردي المطلق ، والسلطة الإرهابية والوصاية على الشعوب بدعوى الجهل والتخلف ، إلا أن التناقض يبدو في تحليلاته حين تنتقل من مجال الممارسة إلى مجال الفكر والثقافة .
والكاتب - كغيره من أصحاب الاتجاه اليساري المادي - يتوهم صراعًا دائرًا بين العلم والدين (64) في المجتمع الإسلامي ، على غرار الصراع بين الكنيسة والعلم في أوربا القرون الوسطى ، ويعزو لتلك المشكلة الموهومة أسباب التخلف والانحطاط (22)!.
كذلك فهو يرى أن أسس الدين الإسلامي ، التي تقوم على أن القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن "كلمة الله الحرفية التي لا يتناولها التغيير ولا التبديل" (74) ، يجعل من الصعب على المسلمين أن يتقبلوا تغييرًا في طبيعة العلاقة بين الله - عز وجل - وبين الناس على غرار ما تقبلته أوربا حين قدمت إلهًا يحكم العالم بالرياضيات ، في فكر ديكارت ، أو غير ذلك من صور العلاقة بين الخالق والمخلوق ، التي تنحى فيها سلطة الخالق وسيطرته الفعلية على البشر بشكل تام وحاسم .
والحق أن إثارة مثل تلك المشاكل المفتعلة ، وتقديم مثل تلك التحليلات الواهية إنما يعكس أمرين :
أولهما:ضحالة المعرفة وقصور الفهم بطبيعة الدين الإسلامي ، الذي يعرف الصغير الجاهل قبل الكبير العالم أنه لا تعارض بين التمسك بتعاليمه وقيمه وأحكامه الشرعية ، وبين ارتياد الفضاء ، أو استخدام الكمبيوتر ، أو تحليل المواد إلى عناصرها للاستفادة منها .
وثانيهما: هو الرغبة الدفينة في تصوير العقبات أمام الأخذ بشرائع الإسلام كما أنزلها الله سبحانه دون تبديلها أو تغييرها ، تحت شعار البحث الثقافي المنصف ، أو الرغبة في الإصلاح .
كما حاول الكتاب في قسمه الثالث إلقاء الأضواء على فساد المجتمع الرأسمالي وتناقضه ، لحساب المجتمع الاشتراكي الذي يحمل - في رأي

الكاتب - الحل الأمثل للأزمات الحالية ، مع أن المنصف يعلم فساد النظم الرأسمالية وفشل التجارب الاشتراكية .

-3-

وفي سلسلة الحديث عن العقل العربي ، قدم الدكتور: زكي نجيب محمود كتابه "قصة عقل (1983) الذي نحا فيه منحى السيرة الذاتية العقلية ، مؤرخًا لرحلته الثقافية منذ اشتراكه في مجلة لسلامة موسى ، بمقالات عن وحدة الوجود (18) إلى أن اتجه إلى الثقافة الغربية اتجاهًا تاماً ، يصوغ من خلالها اتجاهه الفكري ، وليتخير منها مذهبًا فلسفيًا يجعله له "هاديًا ونبراسًا"(93) هو مذهب "الوضعية المنطقية" لفتجنشتين ، وخلاصته: أن الكلمات التي يستعملها الإنسان (اللغة) نوعان:

نوع يمكن أن يعاين معناه مباشرة بالحس أو التجربة العلمية ، وهو يحمل دليل صدقه ، إذ ينطبق على موجود خارجي .

ونوع آخر يتناول ما وراء المحسوس ، وهو لغو لا معنى له. فاللغة غرضها الأساسي هو أن تشير إلى موجودات فعلية تعاين بالحس لتكون مدلولاتها صادقة (92و115) وهذا النوع الأخير من اللغة هو من قبيل التعبيرات الوجدانية التي تقاس بمقاييس "الشعر أو ما إلى الشعر من وسائل التعبير"(116).

ولما كان الإيمان من قبيل الوجدانيات كما يراه المؤلف ، وألفاظه تعبر عن معان ذاتية لذلك فهو "تصديق بغير برهان ، وأما منطق العقل فطريقه البراهين"!(111). لذلك فالتعبيرات التي تتناول موضوعات كالإيمان أو غيره "هي تعبير ذاتي عما يخالج المتكلم من مشاعر.. وهاهنا لا منطق ولا قضايا تقاس بمقاييس موضوعية لتفرقة بين حق وباطل"(175). وبناء على ذلك فإنه ليس من حق أي جماعة "أن تتهم أنصار فكرة بعينها أنصار فكرة أخرى بالضلال إذا كان كل من الجماعتين مستندًا إلى مبادئ غير المبادئ التي تستند إليها الجماعة الأخرى"(100). فالحق - إذن -في رأيه نسبي حين يختص بمسائل لا تخضع للتجارب المعملية ، وأنصار كل فكرة أو دين هم على حق من وجهة نظرهم ، ولا يحق لأحدهم أن ينظر للغير على أنه ضال أو منحرف! ولا يخفى ما وراء تلك الأفكار من ضلال وخطورة والتواء .

والكتاب جاء بعد محاولات سابقة للكاتب تهدف إلى نشر هذا المذهب من خلال الحديث عن الفكر العربي ، وإحياء التراث ، الذي تعرف عليه المؤلف منذ سنوات قليلة بعد أن تشرب الثقافة الغربية حتى النخاع ، ولم يتمكن من التعرف على الفكر الإسلامي إلا من خلال (إحياء علوم الدين) للغزالي ، أو (تهافت التهافت) لابن رشد ، فجاءت محاولاته خالية من الإخلاص ، عارية عن الخبرة ، هادفة لهدم التراث من حيث تبدو محاولة لإحيائه!*

الهوامش:

(1) راجع مفهوم السببية عند أهل السنة ، البيان ، العدد الرابع / 38 .
* الأرقام بين القوسين هي أرقام الصفحات التي يرجع إليها في المصدر الأصلي .

أدب وتاريخ (قصة قصيرة)

قهوة أبي صالح

د . مصطفى السيد

-1-

... لم يكن حبهم "لقهوة أبي صالح" وتعلقهم بها صورة من صور الهيام بالتاريخ التي ألفها العربي ، واعتاد الهجرة إلى أيامه الماضية ، لاسيما في هذه الفترة التي سكنت فيها النفوس بالقحط والإملاق ، واستعمرها القلق ، بل ربما كان هناك دافع أعمق من ذلك .
لقد كانت " قهوة أبي صالح" أشبه بالمصحات النفسية التي يشعر المختلف إليها بجواذب عميقة تشده نحوها ، كما يخرج المنقلب عنها بغير قليل من العافية ، وبقطرات من التفاؤل. مشرعة الأبواب كحدود المسلمين في وجه العلوج ، تسير بضع خطوات لتبلغ صحنها ، ولكنك تشعر بأنك تعبر بكل خطوة قرنًا من القرون الخوالي !!! وما إن تجد نفسك مستقرًا في وسطها حتى تصافح بصرك جُدُر سود كأنها قطعة من ليل بهيم تخلف في هذا المكان ، وفي صدر المجلس كان - أبو صالح - كثريًا من الكريستال يغمر المكان نورًا بوجهه الآتي من القرن الحادي عشر الهجري يقلب بصره في وجوه الحاضرين بابتسامة صادقة يحاول كل من في المجلس أن يختزنها ، وكم يود لو حولت إلى فتات من المسك ليودعها خزائن الذاكرة ، ومخازن الأفئدة. وعلى يساره انتصبت خزانة ذات رفوف - أعتقد أن القرية كلها خلت من نظير لها ، إلا ما استقر في أذهان الشيبان عن أثاث المجالس القديمة - ثبتت هذه الخزانة في الجدار ، مزدانة بدلال القهوة مرصعة بأباريق الشاي ، وفي سفح هذه الخزانة كان أبو صالح يستقر مسندًا ظهره إلى جدار توارى خلفه مستودع (الحطب) وبحركات لتكرارها باتت كأنها آلية (يشب الضو) وهو في الشتاء مدفأة للجسوم وفي (القيظ) مدفأة للنفوس. ثم يشرع في تنضيد الفناجين والكؤوس محدثة نغمة موسيقية تشد الحاضرين إلى المجلس ، وتنتزع منهم آخر اهتماماتهم بما هو خارج المجلس ، ولا يقطع الصمت إلا كلام (أبي صالح) مرحبًا بالحضور ، متابعًا الأباريق التي تصطلي حر النار دون أن يغفل عن تعليق ينطق الصمت ، ويسيل بحر الكلام .

-2-

وينصب الزوار في مجلس أبي صالح ، على اختلاف طبقاتهم وتشعب همومهم الدينية والدنيوية والفكرية. كبار موظفي الدولة ، مدرسو الجامعات ، التجار ، الفراشون ، الكل يخلعون جميع ألقابهم ومكاناتهم الاجتماعية ليستقروا في هذا المطهر الروحي الذي يشعرون فيه بالتخلص من أدران الترف ، ومستلزمات الحضارة الطارئة .
وفي فترات اللقاء المتواصلة الحوار ، والمستمرة النقاش يتوحد الجميع في المناقشة ، وكثيرًا ما يصغي حملة الدكتوراه - باهتمام صادق - إلى ملاحظة لأحد الفراشين بتمعن وترو. وهكذا ظلت (قهوة أبي صالح) المنزل الوحيد الذي يجسد الماضي حجرًا وبشرًا وقبل ذلك فكرًا .

-3-

كان للطعام لذة لا يجدها أحدنا الآن كما كان لكل المتع نكهتها المميزة؛ هل كان السبب في ذلك قلتها؟ أم لأنها كانت لا تحصل إلا عبر جسر من المتاعب ، فتختلط لذة الطعم بنشوة النصر ، على أرض شرسة مسِّيْكَةٍ ، يتابع أبو صالح حديثه قائلاً :
لقد بات الإنسان عبداً للمعارض على اختلاف أنواعها ، معارض السيارات ومعارض الأثاث والأطعمة الدسمة ، والثياب المتأنقة ، ... الخ ، ولكن متابعة الجديد في هذه الميادين لم تشبع الشهوات التي تستبد بالنفوس. بالله عليكم يا جماعة الخير - تابع أبو صالح حديثه وهو يجمع بين الحديث ومناولة الضيوف فناجين القهوة - أليس هذا السعار الدنيوي الاستهلاكي خطر على دنيانا قبل آخرتنا؟ وعلى رجولتنا قبل قلوبنا؟ إنه تدمير لحصون المناعة في النفوس ، وغذاء للاسترخاء والتراخي ، بل إنه عبادة للدنيا ((مَن كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وزِينَتَهَا نُوَفِّ إلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ * أُوْلَئِكَ الَذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إلاَّ النَّارُ وحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ))
علت الجالسين سحابة من الصمت ثم الاسترجاع والحوقلة سوى ما كان من الشيخ (أبي سعد) رجل الأعمال الناجح والرحالة الذي لا يكاد يضع عصا التسيار ، فقد أجاب أبا صالح قائلاً :
هون عليك يا أبا صالح ، ففي الحاضر من المشكلات والإشكالات ما يتعدى البكاء على الأطلال ، إن العمل من قبلك على مد الجسور بين الجيلين - الشباب والشيوخ - يحقق للإسلام مصلحة أكبر من نشوة النصر الآتية من نسف هذه الجسور. لقد أتى على هذه الصحراء حين من الدهر لم تكن شيئًا مذكورًا ، ثم أخذت الحياة تدب في أنحائها ، وأخذت الخضرة - إحدى ألوان الحضارة - تنعش الصمت الرائن على قلبها ، وتبعثر السكونية الجاثمة على صدرها؛ وهكذا امتد بنا العمر حتى رأينا البحر الأخضر موازيًا للبحر الأحمر.
يا أبا صالح - ولا يهون الجماعة - لقد احتفظت هذه الصحراء بالكنوز التي استؤمنت عليها ، ثم أدت الأمانة؛وما علينا إلا أن نعرف كيف نؤدي دورنا كما

أدت هذه الأرض دورها. مجلسك هذا في كثير من البلدان صار تابعًا لإحدى دوائر مصلحة السياحة ، لأن الإنسان قد غدا إنسانًا آخر ، لم يبق من الماضي فيه شيء ، سوى بقية دمع في موانىء العيون ، وعاطفة دينية تنبعث من رقدتها في بعض المناسبات والمواسم فحسب ، انقطعت الصلة بين مؤسسات الماضي والحاضر. هذا رائي ، ولا مانع أن نسمع رأي الأستاذ أمين ، فما أدري (إيش) رأي الأستاذ أمين فما قلت؟
- ما عقب كلامك يا أبا سعد.
- هذا تواضع منك يا أستاذ أمين فجهدك ملموس مع أولادنا ، بالمدرسة ، والناس يسمونك قنطرة الجيلين ، والجسر الذي يعبر عليه الشيوخ إلى عالم الشباب ، ويطل منه الشباب إلى عالم الشيوخ .
- لدي إضافة قصيرة لما قلته يا أبا سعد وهي :
إن التاريخ من خلال (قهوة أبي صالح) وأمثالها لم يدخل المتحف ، وهو بحد ذاته مكسب عظيم ، والفضل في ذلك لله ثم لأمثال هذه القهوة ، لكنني أخشى أن تتحول النظرة إلى تاريخنا العظيم إلى أنه مجرد تاريخ ماض لا مجال لاستئنافه ، يوفر التفكه بهذا التاريخ مادة دسمة للزائرين يتحدثون فيها اغتيالاً للأوقات التي أصبحت عبئاً اكثر منها ثروة .
صاح أبو صالح وقد علت وجهه ابتسامة رقيقة موجهاً حديثه للأستاذ أمين وأبي سعد :
حدثوا الناس حديثًا تبلغه عقولهم .
أجابه الشيخ سعد :
يا أبا صالح حديثنا لم يتجاوز المدركات ، ولم يدخل منطقة الإعجاز ، كل الذي أخشاه أن يصبح حضورنا في هذا العصر مظهريًا محضًا ، ففي مجلس يتردد اسم ابن تيمية ما لا يحصى مرارًا ، وتتساقط كالسيل الأتي شهادات الثناء المرسلة إليه ، وتتسابق دعوات الترحم عليه ، ولكن للأسف لم يتمكن ابن تيمية - عمليًا - حتى الآن من تجاوز قهوتك إلا في حالات نادرة ..
إنني أخشى أن يقتصر دورنا وينحصر في (حراسة) ابن تيمية ، مجرد تصور هذا الدور كارثة حقاً .
ابن تيمية مازال حيًا بالرغم من كل العواصف التي اجتهدت في نسخ اسمه وطمس فكره من مدرسة المفكرين الكبار والمصلحين الأتقياء .
ولكن يا أبا صالح أخشى أن تسكرنا هذه الفكرة وتلقي في روعنا أن الإشارة والمدح لهذا المفكر وذلك الفكر هما دورنا نحوه .
ثم التفت أبو سعد إلى الأستاذ أمين قائلاً :
أقرأ في وجهك كلامًا ، تفضل يا أستاذ أمين .
إن كلامك يا شيخ يذكرني بما كنت أراه صغيرًا في قريتي ، فقد كنت أرى المصحف معلقًا في الجدار ، وقد أودع ثوبًا قشيبًا مطرزًا بقصب ، وربما ظل على تلك الحال أيامًا وشهورًا طوالاً .

موقفنا من ابن تيمية - والحال هذه - يلتقي في النهاية مع موقف أعدائه منه ، وهو أن تظل أفكاره تتنقل بين الأفواه والأسماع ، ومن رسالة ماجستير إلى رسالة دكتوراه ، دون أن تتاح لها فرصة العمل ، وهنا يحضرني قول أحد شعراء الحداثة المعاصرين ، في وصف مثل هذه الحالة :

الحياة تجف في عينيه ، إنسان يموت
والكتب والأفكار مازالت تسد جبالها وجه الطريق

لم يكن (محمد الباحث) معنياً بشيء من النقاش الدائر في (قهوة أبي صالح) إلا من ناحية واحدة ، وربما ضاق ذرعًا به ، ولذلك ما أن أتم الأستاذ أمين حديثه حتى قال بتغيظ لم يقو على إخفائه .

لا أدري هل أبقت تطورات الحياة مكانًا أو دورًا لابن تيمية وأمثاله؟ ثم لماذا ابن تيمية بالذات؟ فأنا لا أسمع في هذا المجلس إلا اسمه؛ ألا يوجد من مفكري الإسلام ممن جاءوا بعده من يسد مسده؟

- والله ما مثل ابن تيمية مع غيره من العلماء إلا كما قال أبو نواس :

متى تحطِّي إليه الرَّحل سالمة تستجمعي الخَلْق في تمثال إنسان

- إنها مبالغة يا أستاذ أمين .

- لا والله يا أبا سعد لقد شغل ابن تيمية عصره ، وكان حضوره لافتًا ، لأنه لم يكن تكرارًا لغيره ، ولا مفكر أوراق (الكربون) الذي يواجه مشاكل عصره بعقول غيره ، أو بأفكار (مبسترة) مسبقة الإعداد ، لقد كان غواصًا يعود باللآلئ بحاثة لا يرتضي الحلول الملفقة ، وعلى المستوى الاجتماعي استأنف التواصل مع العامة - بعد أن غاب ذلك التواصل أو كاد - إبان عصره ، حتى كانت العامة تعتقد أنه إمامها وشيخها وأن همومها تقلقه وتشغله ، ودعاة الضلال أزعجهم ذلك لأنه اختطف منهم السيطرة على مواقعهم التقليدية ، أما علماء عصره البارزون فلم ير المطالع لسيرة حياته إلا تلك السيرة الطيبة التي كان يسيرها معهم ، وأخيرًا لا آخراً فبلاط الحكم في دمشق والقاهرة لم يفتقده ، مكبلاً بالأصفاد تارة ، منذرًا ومحذرًا من أخطار التتار والطابور الخامس تارة أخرى. إنه الحضور المتفاوت المكان المتكامل الدور ..

- جزاك الله خيرا يا أستاذ أمين. إن حضور ابن تيمية هو الذي ذكرت ، وحضورنا الآن حضور باهت ليس له قيمة ، لقد بات ابن تيمية ضميرنا الإسلامي ، مبعث راحتنا ومصدر ألمنا في آن معًا .

-كيف ذلك يا أبا سعد؟

نرتحل إلى فكره فنجد للحياة لذة غير التي اعتدناها في عالم الناس ، ونحاول أن نبحر في سفائنه فتنتصب الأمواج عالية حتى تكاد تفقد الربابنة الرؤية ، وتنتزع من الركاب الطمأنينة وذلك مصدر ألمنا .

أردنا أن نطلق ابن تيمية من سجن القلعة ، فدخلنا به سجن الغربة.

(طوبى للغرباء) أنهى أبو صالح الحديث بهذه الكلمة ، ثم قام الجميع لأداء صلاة المغرب.

من القومية إلي الوطنية

ناصر إبراهيم البريدي

احتل الاستعمار بلاد المـسـلـمـيـن سنوات طويلة ، وقد بذل في هذه السنوات من الجهود الجبارة لحرب الإسلام والمسلمين ، ما يعجز القلم عن تسطيره في مثل هذه العجالة ، ولم يخرج منها إلا وقد اطمأن إلى أنه قــد خـلـف جنودًا يحملون رسالته ، ورجالاً يذبون عن أهدافه ، يحيون ويموتون في سبيله ، وإن كـانـوا من أبناء جلدتنا ويتكلمون بلغتنا ، كثير منهم يركعون ويسجدون معنا ويصلون في مساجدنا .

ولمواجهة الخلافة الإسلامية - التي كانت قـائـمـة فـي آخـر عهد الدولة العثمانية- تبنى الاستعمار لغة القوميات التي أتت على أمتنا بالشرور والويلات .

وبعد أن قضى على الخلافة العثمانية ، جاءت اتفاقية (سايكس - بيكو) التي قطعت فيها الأمة العربية إلى دويلات ، وشتت شمل المسلمين من خلال تلك المؤامرات. وبعد أن ارتفع صوت القومية طويلاً وأدى جزءاً من الأهداف المرسومة له ، ظهرت دعوة أخرى - لا تقل خطرًا عن مؤامرة القوميين - تلك هي الدعوة إلى الوطنية ، واتخاذ الوطن إلهًا يعبد من دون الله ، وارتفع صوت الوطنيين في كثير من الدول الإسلامية يدعون إلى مبادئ تخالف دعوة الإسلام ، وتدعو إلى الانصهار في بوتقة الوطن ، واعتباره رابطًا قومياً يعلو فوق كل الروابط.

ولم يدر أولئك - ولربما علموا - ما يحمل هذا الفكر الخبيث من سموم ، وما سيجره على الأمة من مصائب ونكبات .

إننا في الوقت الذي تتداعى فيه أمم الكفر على أمتنا ، وتجتمع علينا في إطار عقيدة واحدة ، نجد بيننا من يرفع شعارًا يمزقنا ، ومبادىء تفرقنا .

إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعث في قوم تحكمهم العصبيات ، وتسودهم الوثنيات ، فكان السلاح الذي رفعه -صلى الله عليه وسلم- في وجه أولئك هو الإسلام ، الذي جمعهم بعد تفرق ، وذابت فيه كل الفوارق والألوان والجنسيات والطبقات .

وفي ظل الإسلام عقدت أعظم مؤاخاة في التاريخ ، جمعت العربي مع الرومي ، والفارسي مع الأوسي ، والحبشي مع الخزرجي ، ولم يكن هناك أي اعتبار لميزان الجنس واللون والوطن .

وإن أخطر ما في مثل هذه الدعوة أن بعض المسلمين يتحمس لها ويدافع عنها بحسن نية وسلامة مقصد ، بل وتجدهم يرددون ما يزعمون أنه حديث نبوي (حب الوطن من الإيمان) وهو حديث موضوع(1) لا يجوز الاحتجاج به ولا الركون إليه .

وأشير هنا إلى أن حب الوطن أمر غريزي جبلي لا يستطيع الإنسان أن ينكره أو ينفيه ، ولكن الخطر الداهم أن كثيرًا من دعاة الوطنية اتخذوه صنماً يعبد من دون الله ، وتخلوا على مبادئهم الإسلامية باسم الوطنية ((ومِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ)) [البقرة:165].
ولنقرأ مقاطع من مقالة كتبها أحد أولئك حيث قال: " ليس أغلى على الإنسان أو غيره من الوطن ، من الأرض ، من التراب الذي يخصه ، وعلاقة الإنسان وغير الإنسان بأرضه علاقة تختلف عن كل علاقة ، فهي أصلب ، وهي أشد".ثم يمضي الكاتب في غلوه ، فيقول:"ليس ثمة ما هو أرقى من العلاقة بين المخلوق وتربته وأرضه ووطنه".
ولم يكتف بذلك ، بل جاءت القاصمة - التي لا تقصم الظهر ، ولكن تقصم الدين-:
" إن كل شيء يذهب ويتلاشى ، إلا حب الأرض ، حب الوطن ، هو الذي يستمر مشتعلاً في الذات دائمًا أبدًا ، كالوشم الذي لا يتغير".
هذه النتيجة المتوقعة من أدعياء الوطنية ، وهذا الكاتب لا يعبر عن نفسه ، ولكنه خريج مدرسة قائمة ، علمته: كيف يحب ، ومن يحب ، ومتى يحب .
نسي هذا الكاتب -أو تناسى-أن الحب في الله ، والبغض في الله من أوثق عرى الإيمان ، وتجاهل قول الرسول -صلى الله عليه وسلم- »لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين«(2).
ونتيجة لهذا الغلو والإفراط أصبحوا من أجل الأرض يحبون ، وفي سبيل التراب يبغضون ، وفي ذات الوطن يوالون ويعادون .
نعم . . كل إنسان يحب وطنه ، ولكن المسلم يجعل هذا الحب في إطاره الصحيح ، فهو حب طبيعي فطري ولكنه لا يقدمه - بحال من الأحوال - على حب الله وحب رسوله ، ولا يساويه بحب دينه ، بل ولا يرقى حب الوطن إلى حب الوالدين .
إذا هو حب يحكم بحب أسمى منه والعلاقة بالوطن تخضع لعلاقة أقوى منها.
أما أن يصل حب الوطن إلى أن يقول شاعرهم :

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه بالخلد نفسي

فهذا حب لا يقره الإسلام ولا يرضاه بل يمقته ويأباه.
إن حقيقة الدعوة للوطنية تبرز عندما تتعارض مصلحة من مصالح الوطن - الموهومة - مع مبادئ الإسلام وقيمه الحقيقية ، نجد إن دعاة الوطنية يقدمون تلك المصلحة الظنية على ما يقره الإسلام ويدعو إليه .
ولأولئك نقول: إن الله سبحانه وتعالى قد ذم المنافقين الذين فضلوا البقاء في الأوطان على الخروج منها للجهاد في سبيل الله فقال :
((ولَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ولَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وأَشَدَّ تَثْبِيتاً)) [النساء:66].

وأخبر سبحانه عن النهاية المخزية للذين رفضوا الهجرة وارتدوا عن دينهم إيثارًا لحبهم لأوطانهم ، وتفضيلها على حب الله ورسوله .
((إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً)) [النساء:97].
ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يحب مكة ، ولكنه قدم الهجرة فرارًا بدينه على حب وطنه ، وكذلك فعل صحابته الكرام ، وهكذا يكون حب الوطن والولاء له ليس حبًا مطلقًا ولا ولاء محررًا من كل قيد ، كما يريد أولئك الأدعياء .
وأقول بصدق: إن الذي يزعم حب الوطن حبًا مجردًا من مبادئ الإسلام وضوابطه إنه كاذب في زعمه خائن لوطنه وأمته ، هو أول من ينسحب في معركة الذب عنه والدفاع عن حرماته ، وما قصة المنافقين في"أحد" إلا برهان قوي للرد على هؤلاء ، وفي "الأحزاب" خير دليل على حقيقة مواقفهم :
((وإذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ويَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ومَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إن يُرِيدُونَ إلاَّ فِرَاراً * ولَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الفِتْنَةَ لآتَوْهَا ومَا تَلَبَّثُوا بِهَا إلاَّ يَسِيراً * ولَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً)) [الأحزاب:13-15].
وأحداث أفغانستان شاهد حي على مواقف المجاهدين الصادقين ، الذين أبلوا بلاء حسنًا في الذب عن ديارهم وبلادهم ، ومواقف الذين يجعجعون بالوطنية ، فلما جد الجد ونادى منادي الجهاد: ((ولَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً))[الإسراء:46]. فبان الصادق من الكاذب (3) والوفي من الخائن ، فاعتبروا يا أولى الأبصار.

الهوامش:

1- هذا حديث موضوع ، وانظر تخريجه في :
1 - موضوعات الصنعاني ، ص 47 ، حديث رقم 81 ، بتحقيق نجم عبد الرحمن خلف ، وفي الهامش كلام قيم.
2- المقاصد الحسنة ، ص 173 ، رقم 386 وقال لم أقف عليه.
3- كشف الخفاء ، للعجلوني ، ص345 ، 346? رقم1102 ، وفيه كلام طيب .
4- الموضوعات الكبرى لعلي القاري ، ص181 ، 182? بتحقيق الشيخ محمد الصباغ .
2- أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان .
3- لان المؤمن مطالب بأن يدافع عن وطنه وعن حرماته ، وهو داخل في دفاعه عن دينه وعقيدته ، لأن استباحة الوطن المسلم استباحة للدين .

من مشكاة النبوة

لا يحقر أحدكم نفسه

منصور الأحمد

قـال رسول الله صلى الله عليه وسلم-:"ألا لا يـمـنـعـنَّ أحدكم رهبةُ الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده، فإنه لا يقرب من أجلٍ ولا يباعد مـن رزق، أن يقــول بحق، أو يذكر بعظيم"(1).

وعن أبى سعيد قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "لا يحـقــرن أحدكم نفسه، قالوا: يا رسول الله، كيف يحقر أحدنا نفسه؛قال: يرى أمرًا لله عليه فيه مقال، ثم لا يـقـول فـيـه، فـيـقـول الله - عـز وجــل - له يوم القيامة . ما منعك أن تقول فـي كـذا وكذا؛فيقول : خشية -الناس، فيقول: فإياي كنت أحق أن تخشى "(2).

هذان الحديثان موضوعهما واحد، وهو موضوع جليل وخطير وأي شيء أجل وأخطر من قول كلمة الحق، والشهادة به؟ وهما بمجموع معانيهما يحددان العلل والأسباب التي تجعل الناس يستنكفون عن قول كلمة الحق، ومعالجة هذه العلل بالدواء الذي ليس قبله ولا بعده دواء .

إن الرسول -صلى الله عليه وسلم- " إذ يخاطب أمته بهذين الحديثين فإنما يرمي إلى تربية هذه الأمة، وإعدادها إعدادًا ربانياً لمهمتها المنشودة في الأرض وفي التاريخ، ويبنيها بناء عقيديًا متماسكًا.

والمشكلة بالنسبة للأمة الإسلامية ليست في معرفة الحق والكشف عنه - حيث إن الله قد اقتضت حكمته أن لا يخلي هذه الأمة من طائفة تعرف الحق، وتبينه للناس - ولكن المشكلة الخطيرة هي السكوت في وجه الباطل، وعدم الجهر بالحق الواضح خوفًا من ضرر، أو طمعاً في نفع شخصي .

إن هذين الأمرين : الخوف والطمع هما اللذان يحجبان كلمة الحق أن تصل إلى الآذان، ويقفان حاجزًا أمام تواص الناس بالحق والصبر عليه .

ولم يزل الخوف هو العامل الأهم في القعود عن القيام بواجب الجهر بالحق، والرضا بالدون من الأهداف، والسهل من الأعمال، وهذا الخوف يكون من بطش ظالم، أو طغيان طاغوت، أو خوفًا من انقطاع رزق، وتضييق في عيش. فالشيطان عندما يأتي ليصرف العالم عن القيام بهذه المهمة المقدسة يبث في فؤاده الرعب عن طريق تخويفه من عاقبة ذلك بإبرازه ما حدث لبعض من قام بهذه المهمة، وتضخيمه لما نزل بهم من صنوف التنكيل والعسف، بل يذهب إلى أبعد من ذلك، بأن يخوفه الموت نتيجة لذلك، حيث يصور له أن ما يحدث للمجاهدين في سبيل الله إنما هو من فعل أعدائهم بهم، وأنهم هم المؤثرون بآجالهم إطالة أو تقصيرًا، وكذلك يستعرض له الذين يضيق عليهم بسبب عدم قدرتهم على ضبط أنفسهم، وما هم عليه من هم وغم، وما في حياتهم من خشونة لا لزوم لها! وكيف أن من يسمون أنفسهم بدعاة الحق

مطاردون في كل أرض، مذادون عن كل حوض، يتنكر لهم القريب، ويجفوهم الصديق.
ولكن الرسول -صلى الله عليه وسلم- يريد من المسلم دائماً أن يكون على ذكر من بدهيات عقيدته، وعلى وعي لأحابيل الشيطان، فلا يغفل عن حقيقة أن الآجال مقدرة من الله تعالى، وأن لا أحد يستطيع أن يتقدم أو يتأخر عن أجله الذي حدد له، وأنه ليس بمقدور أحد أن يزيد أو ينقص من أجل أحد، وكذلك فإن الله إذا أراد نفع أو ضرر إنسان فليس هناك من يستطيع أن يغير تلك الإرادة .
داءان خطيران وقع فيهما الدعاة إلى الله، فتقاعسوا عن الإرشاد والتبليغ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، و هما :
التشبث بالحياة والحرص على حطامها.
* أما التشبث بالحياة، والبعد عن شبح التهديد، وإيثار السلامة فدفعهم إما إلى السكوت عما لا يسكت عليه؛ وإما إلى قلب الحقائق، والدخول في التأويلات التي تزين الباطل، وتخفي دمامته وقبحه. مع أن الله قد أخذ العهد على العلماء ببيان الحق، دون أن تأخذهم في الله لومة لائم، وقد حذرهم من مصائر الذين كتموا الحق وأهملوه، قال تعالى:((وإذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ ولا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ ورَاءَ ظُهُورِهِمْ واشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ)) [آل عمران:187].
ووصف الله المؤمنين بأنهم ((أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ولا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ)) [المائدة:54].
* وأما الحرص على حطام الدنيا فقد كان له أثره المدمر في مسيرة المسلمين، فكم من عالم عالم بالحلال والحرام ألجمه حب المال عن قول كلمة حق في موقف يحتاج إليها فيه! وكم من أناس تفضل الله عليهم بنعمة العلم والفقه يغضون الطرف عن كثير من المنكرات والمخالفات خوفًا من انقطاع جرايةٍ أو مرتب، أو ذهاب امتيازات مادية يتمتعون بها، وقد يخدعهم شيطانهم بإقناعهم أن هذه الامتيازات هي حقٌ يستحقونه، وأنهم أولى بها من غيرهم، ويغفلون أو يتغافلون عن الجانب الآخر من القضية وهو أن هذه الامتيازات ما هي إلا رشوة لهم على سكوتهم، وجائزة لهم لالتزامهم الأدب والسلوك الحسن أمام أعداء الله الذين تُحمد أمامهم الغلظة، لا رقة السلوك وحسنه .
إن مما يؤسف له أن الذين أخذوا على عاتقهم مسؤولية حرب الإسلام، وندبوا أنفسهم لإخفات كل صوت يدعو إلى الله على بصيرة بصدقٍ وتجرد؛ قد تنبهوا إلى مقاتل الدعاة التي يصوبون إليها أسلحتهم، واستثمروا نقاط الضعف هذه ليعبثوا بدين الله ودعاته كما يحلو لهم؛فهم يداولون بين سلاح التخويف والإرهاب تارة، وسلاح الوظائف والامتيازات والرشا تارة أخرى، وقد تتخصص

كل جهة من الجهات في استخدام واحد من هذين السلاحين على حسب مقتضيات الظروف والأحوال .
لقد جعل الله المال فتنة للناس، ومحكًا لتمييز المخلص في دعوته من غيره، وكم رأينا من الناس من كان في حال العسر يرفع عقيرته بالشكوى من أوضاع باتت تلفه وتلف غيره، ويشتهر بين الناس بالعمل في سبيل الإسلام، حتى إذا تحول إلى حيث جاء الرزق رغدًا، وطلّق الفقر؛ خفت صوته بل تلاشى، ولفه ثوب الكسل، وأصبح النشاط الذي كان بالأمس أثرًا بعد عين. من يدري؟! فربما تكون نفسه قد أقنعته أنه الآن - في حالته الحاضرة- قد وجد ثمرة جهاده ونتيجة صبره! مع أن أوضاع المسلمين في أغلب البقاع لا ترضي، ومشاكلهم متشابهة، وأينما اتجهنا وجدنا التهديدات التي تهدد مصيرهم، والأخطار التي تزيدهم ضعفًا؛ فموالاة أعداء الله؛ والتنصير الماحق الذي يتحيف بلاد المسلمين بل يهب عليها كالريح الصفراء؛ والدعوات الهدامة التي يروج لها في كل مكان؛ وتبديد ثروات المسلمين على ما لا يفيد؛ وإخضاع الإسلام في مجال الدعاية للأشخاص والأهواء ؛. .. كل ذلك وغيره كثير وكثير من المجالات التي يترتب على العلماء أن يقولوا فيها قولة واضحة لا غموض فيها ولا التواء. وتبقى مسألة أخيرة وردت في الحديث الثاني، في قوله -صلى الله عليه وسلم-:" لا يحقر أحدكم نفسه" هذه المسألة هي مسألة الثقة بالنفس التي أراد عليه الصلاة والسلام أن يغرسها في نفوس المسلمين، فالثقة بالنفس هي الدافع إلى العمل، وهذه الثقة لا تكون إلا حيث تكون النفس على يقين من صحة ما تدعو إليه، ومن بطلان ما عداه، ومن آثارها أن الشخص يتحول من عضو سلبي في المجتمع، ضائع في تيار الغفلة، إلى شخص مؤثر إيجابي لا يهاب أحدًا إلا الله، يستهين بالباطل، وتزداد استهانته به كلما انضم إليه بهذا الشعور أمثاله من الذين يتخذون من رسول الله أسوة حسنة .
فصلى الله على هذا النبي الأمي الذي آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب، فهدانا - بهداية الله له -إلى أحسن السبل، وعرفنا مواطن الخير بأقصر عبارة وأجلاها، ونسأله تعالى أن يجعلنا من ((الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً)) [الأحزاب:39].
الهوامش:
1-رواه أحمد في (المسند)11494 بإسناد صحيح .
2 - رواه ابن ماجه، حديث رقم: 4008 .

نظرة سريعة إلى أحوال المسلمين في الفلبين

وصـلـنا مـن الأخ سـلامـات هـاشم ، رئيس "جبهة تحرير مورو الإسلامية" تقريران فيهما لـمـحـة عن أوضاع المسلمين هناك، وتطورات قضية جهادهم في ظل نظام "أكينو" الحـالي، ويسرنا أن نقدم النقاط الرئيسية التي اشتمل عليها هذان التقريران كبداية لتعاون مستمر إن شاء الله.

تقـتـرب حـكـومة "أكينو" من نهاية عامها الثاني، ولم تستطع أن تأتي بدليل عملي يثبت قـدرتـهـا عـلـى الـخـروج من المأزق والأزمات الخطيرة التي وقعت فيها الدولة أثناء حكم الدكتاتور السابق المخلوع، وإن المشاكل التي أوجدتها الإدارة الحالية أكثر مما حلته .

والـجـهـود الـتي بذلتها بغية استقرار الحكومة وإيجاد حلول لمشاكلها السياسية والأمنية والاقـتـصادية العويصة قد باءت كلها بالفشل الذريع ، والدلائل تشير إلى أن الحكومة لن تستقر ولن تستطيع أن تحل مشاكلها ، بل ربما تتضاعف مشاكلها بمرور الأيام ، إذا قدر لها البقاء لفترة من الزمان ، وصدق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذ قال: »لن يفلح قوم ولوا أمرهم إمرأة« .

المحاولات الانقلابية:

شهدت إدارة أكينو خمس محاولات انقلابية عسكرية منذ قيامها في25 فبراير 1986م. ولاشك أن هذه المحاولات الانقلابية المتكررة - رغم فشلها -تدل على أمور كثيرة منها: ضعف الحكومة ، وعدم وجود الثقة المتبادلة بين القيادات المدنية والعسكرية ، حيث إن مؤسسة الدولة العسكرية منقسمة إلى قسمين: قسم موال للحكومة وقسم ضدها ، وإن المحاولات الانقلابية الأخيرة هي أخطر وأقوى من المحاولات السابقة ، ويبدو أنها ليست المحاولة الأخيرة بل ستكون هناك محاولات قادمة ، وربما أقوى من المحاولات السابقة .

وجدير بالذكر أن قائد المحاولات الانقلابية الفاشلة الحديثة مازال متخفيًا وهو مصمم على مواصلة جهوده للإطاحة بالحكومة الحالية لتحل محلها لجنة مشتركة من مجموعة من السياسيين والعسكريين .

وكادت المحاولات الحديثة أن تنجح ، فقد استولى الثوار على القاعدة العسكرية الرئيسية وعلى بعض الإذاعات التلفزيونية ، ووصلت المعارك إلى أبواب القصر الرئاسي ، حيث مكتب الرئيسة أكينو وسكنها الرسمي ، وجرح أثنائها ابنها الوحيد ولقي حرسه الثلاثة مصرعهم .

التطورات العامة في الفلبين باختصار :

1 - الحكومة الحالية لم تستقر وسوف لن تستقر ولم تحل شيئًا من مشاكلها العويصة وسوف يستمر هذا الوضع لفترة من الزمان .
2- احتمال تكوين مجلس عسكري سياسي لتولي الحكم مع بقاء السيدة أكينو رئيسة رمزية إما بدون سلطة أو ببعض السلطات المحدودة. وفي هذه الحالة سوف تتصاعد الحرب بين الحكومة والشيوعيين ، وبينها وبين المسلمين .
3-المخابرات المركزية الأمريكية تلعب دورًا كبيرًا في تسيير الأمور في البلاد ، ولعبت دورًا سيئًا في الأحداث الأخيرة إن لم تكن هي مدبرتها .
4-المفاوضات بين الحكومة ومسواري وصلت إلى طريق مسدود ، وعلى أي حال لم يتوقع أحد ممن يعرفون الأوضاع وحقائق الأمور في البلاد أن تنجح تلك المفاوضات ، والحكومة لم تقصد إنجاحها .

التطورات الخاصة في منطقة مورو الإسلامية:

1- لاشك أن المنطقة تتأثر نوعًا ما بالتطورات في حكومة مانيلا ، غير أن الظروف فيها تختلف كثيرًا عن الظروف في بقية الفلبين ، فقد تكون التطورات نقمة بالنسبة للحكومة ، ونعمة بالنسبة لمنطقة مورو ، وإن المحاولات الانقلابية السالفة الذكر أوضح مثال لذلك ، حيث كانت هذه الحادثة نقمة على حكومة أكينو ولكنها نعمة لمنطقة مورو ، لأن الحكومة اضطرت إلى أن تسحب قواتها المنتشرة في المناطق الإسلامية لتعزيز القوات الموالية لها في مانيلا ، حيث وضعتها في أماكن استراتيجية حول العاصمة .
2-أما تغيير الحكام في الفلبين فلا يؤثر كثيرًا على وضع المسلمين وليس هناك فرق كبير في معاملتهم مع المسلمين، والحكام الفلبينيون النصارى كلهم متفقون على أن الإسلام هو عدو حكومتهم الأول، وأن وجود الجماعة الإسلامية في الجنوب خطر على الدولة ، وصدق الله العظيم إذ يقول: ((ولَن تَرْضَى عَنكَ اليَهُودُ ولا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ))، ويقول في آية أخرى: ((ولا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إنِ اسْتَطَاعُوا)).
3-إن حكومة أكينو التي كان كثير من الناس داخل البلاد وخارجها يأملون أن تنفذ وعودها بإعادة حقوق المسلمين المسلوبة إليهم، وأن تعاملهم معاملة عادلة هي مثل الحكومات السابقة في معاملتها للمسلمين وفي سياستها إزاء قضيتهم .
والخلاصة أن الوضع في منطقة مورو الإسلامية لم يتغير، وأن موقف الحكومة الحالية تجاه شعب مورو المسلم كموقف الحكومات السابقة، وليس هناك أمل في استرجاع حقوق المسلمين المسلوبة بواسطة الأسلوب السياسي السلمي، وان الطريق الصحيح هو استمرار الجهاد في سبيل الله .

أحوال المسلمين في جنوب الفلبين:

1-رغم الحياة القاسية والظروف الصعبة التي تحيط بالمسلمين فإنهم يشقون طريقهم إلى حياة إسلامية أفضل، فرغم بعدهم الجغرافي عن بقية العالم

الإسلامي فقد تأثروا بالوعي الإسلامي المنتشر والمحسوس بين صفوف المسلمين في شتى أنحاء العالم الإسلامي، فقد انتشرت المدارس الإسلامية الأهلية، وكذلك مدارس قراءة وتحفيظ القرآن الكريم، وازداد عدد المساجد، فقد أعادوا إقامة المدارس والمساجد بعد أن أحرقتها السلطات الفلبينية وازداد تمسكهم بتعاليم دينهم .

2-لعل انتشار الظلم والفساد من ضمن العوامل التي دفعت الناس إلى الإقبال على الإسلام فقد سئموا الحياة في ظل المجتمع الفلبيني الظالم الفاسد، وهم الآن يتخبطون في الظلام للبحث عن نور ينير لهم الطريق السوي الذي يوصلهم إلى حياة أفضل، وقد وجدوا هذا النور في برامج جبهة تحرير مورو الإسلامية التربوية والتعليمية والاجتماعية، وفي خطتها للدعوة الإسلامية العامة والخاصة .

3-إن الدعوة الإسلامية تجد أرضًا خصبة في المنطقة، فإن المسلمين يهتمون بدينهم الآن أكثر من اهتمامهم به من قبل، وغير المسلمين يقبلون على الإسلام عن حب و رضا .

وضع الجهاد والمجاهدين:

تحسن وضع الجهاد ومجاهدي جبهة تحرير مورو الإسلامية وخاصة في مجالات الإعداد والتدريب والتنظيم وتنسيق القيادات الإقليمية ولجان الجبهة، وأجهزتها المختلفة حيث اغتنموا فرصة الهدوء النسبي الذي ساد البلاد منذ قيام حكومة أكينو فعملوا على إعداد العدة والتدريب في جميع الميادين الضرورية في الجهاد .

إن وضع الجهاد والمجاهدين يتحسن بمرور الأيام، وأصبحت جبهة تحرير مورو الإسلامية الآن أقوى من قبل وذلك بعون الله سبحانه وتعالى ثم بفضل جهود العلماء والدعاة والقواد العاملين في ميدان الدعوة والجهاد، فقد استطاعوا بعون الله وفضله أن يوحدوا صفوف المجاهدين المخلصين الصادقين تحت راية الإسلام وفي ظل جبهة تحرير مورو الإسلامية، وتمكنوا من توجيههم إلى طريق الجهاد الصحيح.

السلطات الفلبينية تقـتل العلماء المسلمين وتحرق المعاهد والمدارس الإسلامية :

تقوم الوحدات التابعة للقوات المسلحة الفلبينية الجديدة التي أنشأتها حكومة الرئيسة أكينو مؤخرًا بقتل العلماء المسلمين، وإحراق المعاهد والمدارس الإسلامية في بلاد "المورو" بجنوب الفلبين .

وقد تلقى عدد من العلماء والأساتذة والدعاة في جنوب الفلبين رسائل بتوقيعات مستعارة كانت موضوعاتها الرئيسية هي التهديدات بالقتل والاغتيال أو الخطف. وقد وجهت هذه التهديدات بوجه خاص إلى العلماء والدعاة الذين يخطبون في المساجد، ويطوفون البلاد لنشر الوعي الإسلامي والمدرسين

المشهورين والمعروفين بمواقفهم الإسلامية الصحيحة الثابتة، والذين يشرحون الدين الإسلامي، ويدعون الناس إلى الله في الإذاعات المحلية .
ولم تمنع تلك التهديدات العلماء والدعاة المخلصين من ممارسة عملهم الإسلامي بل تجاهلوها وضاعفوا جهودهم في نشر الحق، ودعوا هؤلاء الذين يهددونهم بالقتل إلى توثيق الروابط والتفاهم، وتدعيم المحبة والتعاون على إحلال الأمن والاستقرار في البلاد، كما دعوهم إلى الإسلام، دين العدل والخير والبركة، واستمرت التهديدات تارة بالرسائل، وتارة بالتليفونات وغيرها، ولم يلتفت العاملون في الحقل الإسلامي إليها، ولم يكن أحد يعرف بالتأكيد من أين تأتي تلك الوسائل والاتصالات التلفونية فضلاً عن مصدر التهديدات، وإن كانت التحريات تشير إلى شبكة الاستخبارات الفلبينية والعناصر المعادية للإسلام بصفة عامة .
وقد نفذ أحد هذه التهديدات في19 مارس1987 واكتشفت مصدرها بالتأكيد حيث قام عملاء استخبارات الجيش الفلبيني تحت إشراف أحد ضباط المخابرات المدعو (إميليو كوميلينج) باغتيال الشيخ إبراهيم ديرون أحد العلماء والدعاة المشهورين في" كوتباتو" في جنوب الفلبين، وهو داعية ومدرس في معهد كوتواتو الإسلامي، وعين وكيلاً للمعهد قبيل استشهاده، والفقيد رحمه الله تعالى معروف بمواقفه الإسلامية الصحيحة، وعمله الدؤوب في ميدان الدعوة والتربية والتدريس.
وقد عرف بالتأكيد أن عملاء المخابرات الفلبينية التابعة للكتيبة رقم (35) في بلدة "تَيِبْرا" بمحافظة "ماجيندانا"، هم الذين قتلوا الشيخ الشهيد رحمه الله بقيادة ضابط المخابرات المدعو (ميليو كوميلينج)، وقد أصيب المرحوم بثلاث رصاصات في رأسه وصدره وذراعه، وتوفي رحمه الله قبل أن يصل إلى المستشفى.
وقد اكتشف أيضاً أن العملاء الذين قتلوه تابعون لشبكة استخبارات،الجيش الفلبيني التي تعمل في الجنوب الإسلامي، وهي مكلفة بالقيام بما يسمونه (المهمة القذرة (وتعني هذه العبارة: القيام بقتل العلماء والدعاة والزعماء الإسلاميين إضافة إلى التزوير وتلفيق الأخبار وإيجاد البلبلة ونشر الفساد والإفساد والفوضى في بلاد المسلمين .
وعندما علم مدبرو القتل باكتشاف أمرهم هربوا وتركوا المنطقة، وليس هناك أي سبب دفع المجرمين إلى قتل الشيخ سوى أنه عالم وداعية يقوم بنشر الوعي الإسلامي، ويدعو إلى إقامة حكم الإسلام وتطبيق الشريعة الإسلامية والتمسك بالعادات والتقاليد الإسلامية الواردة في الكتاب والسنة .
وقد تظاهر في مدينة "كوتبانو " إثر الحادث ما لا يقل عن عشرة آلاف طالب وموظف وغيرهم من عامة الشعب المسلم استنكارًا للجريمة البشعة التي لم يكن الهدف منها قتل الشيخ المذكور فحسب، بل كانت جزءاً من المخططات الفلبينية لمحاولة القضاء على الإسلام والمسلمين في المنطقة، ونبهوا

المسلمين بأن قتل علمائهم الأبرياء من قبل السلطات الفلبينية ليس إهانة للإسلام والمسلمين فحسب ولكنه جزء من العمليات المدبرة التي تهدف إلى محو الإسلام في المنطقة، ودعوا المسلمين إلى مواجهة هذا التحدي.
والتهديدات بقتل أو اغتيال العلماء والدعاة مستمرة حتى الآن، وقد اضطر بعضهم إلى الانتقال إلى أماكن آمنة تاركين بيوتهم وأموالهم وأراضيهم.
وفي الوقت نفسه قامت بعض العناصر التابعة للقوات المسلحة الفلبينية الجديدة في الشهر الماضي بإحراق عدد من المعاهد والمدارس الإسلامية في قرى (مغانوي وأمباتوان، وكيتانجو) بمحافظةِ (ماجينداناو) وقبل إحراق المعاهد والمدارس هددوا بقتل المدرسين فيها، علماً بأن الحكومة الفلبينية تتهم المعاهد والمدارس الإسلامية بتخريج مجاهدين ودعاة يقومون بتغيير الوضع في البلاد وإقامة مجتمع لا يتمشى مع الدستور الفلبيني ونظامه.

أكينو على خطى ماركوس في حرب المسلمين:

وقد تبين الآن بوضوح أن حكومة أكينو - التي علق عليها بعض المسلمين داخل الفلبين وخارجها آمالهم بسبب تصريحاتها المغرية بشأن قضية المسلمين ووعودها بمنح المسلمين حقوقهم -ليست أقل عداء للإسلام والمسلمين من الحكومات السابقة، وهى تنفذ نفس الخطة المعادية للإسلام والمسلمين ولكن بأسلوب آخر وبعمليات خفية تحت ستار الشعارات الماكرة والوعود الكاذبة، ((ويَمْكُرُونَ ويَمْكُرُ اللَّهُ واللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ)).
وليس هذا بغريب، فإن الرئيسة أكينو تعتمد كل الاعتماد في اتخاذ قراراتها ووضع سياستها على مستشاريها من القساوسة ورجال الكنائس الفلبينية، إضافة إلى المخابرات الأمريكية، وصدق الله العظيم إذ يقول: ((ولا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إنِ اسْتَطَاعُوا))، ولن يستطيعوا ذلك إن شاء الله فإن مجاهدي جبهة تحرير مورو الإسلامية قد عاهدوا الله تعالى العلي القدير القاهر فوق عباده على أن يستمروا في جهادهم في سبيل الله لإعلاء كلمته إلى أن يحقق الله لهم النصر، أو ينالوا الشهادة وشعارهم (النصر أو الشهادة).

أدب وتاريخ

نور من الوحي

شعر: أبي معاذ الخالدي

نـور أضـاء من الـبـطـحاء وائـتـلـقا	حـتـى بـدا ذا جـلال يغمر الأفـقـا
نــور من الـوحي وهاج أصـيـب به	هـامُ الظـلام وهـامُ الظـلـم فانفـلـقا
نــور من الذكر والتـنـزيـل يحـمله	جـبريل مبـتدئًا باسم الذي خـلـقـا
يـا رب شـكـرًا على نعـماء سـابـغة	أنـت المـنـزل وحــيًا هـاديـًا فـرقــا

أجبت دعوة "إبــراهيم" حين دعا وابن البتول ببشرى المصطفى صدقـا
يـا فـرحة الكون بالمـختار..موكبه رهـط مـن المـلأ الأعـلـى قـد ارتـفــقا
أنـقــذت فيه بلادًا -أنت بارئـهـا وصنت هدي النبـيـين الذي سـبـقـا
هـذي الـنبـوات في التاريخ مرحمة للـعـالـمـين ... وتأديـب لـمن فـسـقـا
يـهـدي بـها الله أقوامًا فيـجمـعهم ولـيس ما يجمع الرحمن .. مفـترقا
فـلـم يـعد سر تجميع الورى نسـبا من الجدود .. ولا دارًا .. ولا طبقا
هـذي الـروابط سـخـف لا يـقـر به إلا الـذي عن سـبـيـل الله قـد مرقا
مـا الأرض إلا تـراب..لـيس يعبده موحد .. لا ولا يـرضـاه مـنـطـلـقـا
ومـا الحـظـائر للإنـسان يسـكـنـها مـا دام يـسـتـشـعـر الإيمان والخلقا
تــلـك الـطـواغــيت أوثان يقدسها عبيد إبلـيس عن غي ومحـض شـقا
مـنـهـاجنا الحق .. إسلام يوحدنا فـلا نــكـون عـلـى إسـلامـنـا فـرقـا
مـهـمـا نأى منزل.. مهما نأى زمن فالمنهج الـحـق للـنائـين خـيـر لـقـا
يـا رب ثـبـت عـبادًا خلصًا سلكوا درب النبيـيـن..واجـعل هديهم فـلقا

وكالات الأنباء . .وأخبار المسلمين!

سنعرض للقارىء الـكـريم نـمـوذجًا يلخص صورة الحياد المزعوم في نقل الأخبار ، وسننقل الخبر بنصه كما أوردته وكالة "رويتر" للأنباء ، ثم نلقي عليه بعض الأضواء .

نيجيريا -شغب:

سجن أربعة مسلمين في أحداث شغب دينية .

لاجوس/ 2 تشرين الثاني (نوفمبر) رويتر: قال راديو لاجوس الرسمي : إن أربعة شبان مسلمين أدينوا وسجنوا في مطلع الأسبوع الحالي بتهمة الاشتراك في أحداث شغب دينية وقعت في شمال نيجيريا في شهر آذار مارس الماضي وأودت بحياة 16 شخصًا.

وهؤلاء الرجال الأربعة ، بين عشرات من المشتبه فيهم ، الذين مثلوا أمام محكمة خاصة في"أبوجا" التي ستكون عاصمة للبلاد في المستقبل ، وقضت المحكمة يوم السبت الماضي بسجن ثلاثة من مثيري الشغب عشر سنوات لكل منهم بتهمة الاعتداء الجسيم على آخرين خلال قلاقل وقعت بين طلبة مسلمين ومسيحيين. وكانت هذه الاضطرابات قد اجتاحت ولاية "كادونا" ودمرت عشرات الكنائس وبض المساجد ، وحكم على الشاب الرابع بالسجن ثلاث سنوات بتهمة الإخلال بالأمن ، في حين حصل متهمان على حكم بالبراءة . وظل جميع المتهمين الذين لم يعرف عددهم بالضبط رهن الاعتقال منذ إلقاء القبض عليهم قبل ما يزيد على سبعة أشهر .

حتى يتهيأ ذهن القارىء للحكم مسبقًا لابد من الإثارة ، والإثارة هنا وسيلتها استعمال الكلمات ، ومن أجل ذلك يطالعنا عنوان الخبر بحدي معادلة بسيطة:

الحد الأول : نيجيريا..
الحد الثاني: شغب ..
واختيار كلمة شغب اختيار مقصود ، فالانعكاس التلقائي البسيط الذي تحدثه كلمة "شغب" في أذهان الناس جميعاً بشتى مستوياتهم هو: هيجان يقوم به شخص أو أشخاص ، يرافق هذا الهيجان تخريب للممتلكات واعتداء على حياة أناس آمنين ، والنقطة المهمة هنا أنه ليس وراء هذا الهيجان أي هدف سوى التخريب وحب الاعتداء ، وليس من محرك للنزوع إلى هذا الشغب إلا فساد في البنية النفسية والعقلية لمن يقوم به وتعطشه للدم وإنزال الأذى بغيره! وهكذا تكون الأرضية المجهزة برد الفعل العفوي تجاه هذا الخبر قد تكونت ، وقد حدث هذا بسهولة وبساطة وبحيلة بعيدة عن التعقيد لم تكلف إلا كلمة!
والآن إلى استبدال الحد الثاني من المعادلة بما يقابله:
(سجن أربعة مسلمين في أحداث شغب دينية).
ليس من شيء طريف في هذا العنوان الصحفي سوى أمرين:
1 - حذف كل ما يمكن أن يتصف به هؤلاء الأربعة وإبقاء صفة واحدة ، هي أنهم مسلمون ، فكونهم رجالاً أو نسًاء ، شيبًا أو شبانًا ، متعلمين أم جهلة ، كل ذلك غير مهم أما المهم فهو كونهم مسلمون ، والغاية ستظهر بعد قليل.
2 - وصف أحداث الشغب بأنها دينية ، وأرجو من القارىء الكريم أن يصبر معي قليلاً إن كان ممن يستثقل الحديث عن الإعراب واللغة ، ففي الحقيقة: إن الإعراب يحدد وظيفة الكلمة ، ويضعها موضعها الصحيح لتعطي الأثر المطلوب .
لقد كان إضافة صفة "دينية" إلى الأحداث ضرورية من وجهة نظر صائغ الخبر وناقله ، فلو اكتفى بكلمة أحداث شغب لما كان هناك غرابة لا لمسلم ولا لغيره ، فليس غريباً أن يقوم مسلم أو مجموعة مسلمين بأحداث شغب مجردة ، ولكن لما كان صائغ الخبر حريصًا على الأمانة والحياد في النقل ؛ولما كان يريد من هذه الصفة أن تقوم بوظيفة تكميلية لكلمة شغب أضافها .
وأحداث الشغب الدينية لابد أن ترتبط بمسلمين لينتج عنها معادلة جديدة تستقر وتترسخ في الجانب غير الواعي لمن يقف على الحياد أو لمن له موقف سابق من الإسلام والمسلمين هذا المعادلة هي :
المسلمون = شغب (ديني)!
في سياق الخبر تتطابق وجهة نظر ناقل الخبر المطلقة مع وجهة صاحب الخبر وهو راديو لاغوس الرسمي ، وهذا التطابق واضح من ترك نهاية الخبر سائبة لا يعرف عند أي عبارة انتهت ، ولو جهدت لتعرف نهاية الخبر كما نقله الراديو وتميزه عن التعليق الذي تدسس بنعومة (ولكنها نعومة ثقيلة سمجة) لما استطعت ، ولظلت تخميناتك كلها في دائرة الظنون .

إن الحياد المزعوم يفضح نفسه ، ويبدو حيادًا فجًا إذا ما تقدمنا مع الخبر خطوة خطوة ، فانظر إلى عبارة (بين عشرات من المشبه فيهم) كم عشرة يا ترى !! ثلاثة ، أربعة ، ستة ، أكثر..؟!
وكذلك عبارة (الاعتداء الجسيم) ما حدود هذا الاعتداء ، على ماذا حصل؟ على أجسادهم ، على أموالهم؟! ثم كلمة (آخرين) ألا ترى أن التجهيل مقصود؟ أليس من الحق أن يوصفوا بأي وصف؟(قلاقل وقعت بين مسلمين ومسيحيين) نصل إلى هذه العبارة - وبعد كل الشحن الذي شحننا به الذين يتحكمون حتى بصراخ المسلمين وشكاواهم - لتوحي لنا بأن المسلمين دائمًا هم البادئون بالقلاقل وأن المسيحيين دائمًا في موقف الدفاع عن النفس! هل تريد دليلاً على هذه الدعوى؟! هذه الاضطرابات قد (دمرت عشرات الكنائس وبعض المساجد) عشرات الكنائس: ثلاثين ، أربعين ، تسعين ، وما فوق ذلك؟ كله محتمل ، (بعض المساجد) مهما حاولنا التكثير فإن كلمة (بعض) تقول لنا: لا ليس إلى هذا الحد ، (بعض المساجد !!) ، ثم لاحظ هذا التقابل الطريف:
قلاقل وقعت بين طلبة مسلمين ومسيحيين .
دمرت عشرات الكنائس وبعض المساجد !
إن تصوير المسلمين بهذه الصورة ، وتجاهل الأسباب التي تدفعهم إلى ما يقومون به من أعمال ، وإظهارهم بمظهر مجموعات خارجة على القانون ، تتخذ من الإخلال بالأمن مهنة ، وتصغير ما ينزل بهم من تنكيل ، وتناسي ما يقع عليهم من اعتداءات يومية ، وتضخيم آثار دفاعهم عن أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ودينهم ، وإبرازهم على هيئة قطاع الطرق؛كل هذا من مهمة هذا الإعلام الذميم الكافر الذي يدعي الموضوعية بينما هو في تناوله لقضايا المسلمين أبعد ما يكون عن الموضوعية ، وأقصى ما يكون عن مراعاة مقتضيات الضمير الحي ، فضلاً عن الصدق الذي هو صفة لازمة للحق من أي جهة صدر.
لقد عنيت بهذا الخبر وجعلت من تحليله دليلاً يرشدنا إلى عدم الركون إلى كل ما تلقي به وسائل نقل الأخبار العالمية ، وخاصة فيما يتعلق بأحوال المسلمين . وأنه لابد من الحذر الشديد ، والنظر بعمق إلى الأهواء التي تكمن وراء الكلمات وكشفها وتعريتها حتى يتضح الصواب من الخطأ ، وتظهر الحقيقة من بين ثنايا التحامل.

الصفحة الأخيرة

التحرير

"إن الأحوال في المخيم (مخيم جباليا) فظيعة أو غير إنسانية، وإهانة للمبادئ الحضارية، أتحدى أي أحد يأتي إلى هنا ولا يصدم".

"إذا بـقـي هـذا المـكـان بالشكل الذي هو عليه؛ فإن ذلك سيكون إدانة لكيان أنشىء على أسـاس قـوة أخـلاقـيـة غـايـة في الـقـوة".
بهذه الكلمات القوية أدان وزير الدولة للشؤون الخارجية البريطاني "ديفيد ميللر" الأوضاع التي يعيش فيها سكان المخيمات الفلسطينية في ظل الاحتلال الصهيوني ، فقد زار مخيم "جباليا" في قطاع غزة ولم يصدق ما رأته عيناه.! ولكن، هـل الإنكـلـيـز صادقــون عندما يتجهون بإدانتهم لإسرائيل ، وهل ما يصدر عنهم يمثل رؤيتهم الأخلاقية للقضية برمتها؟
إن المستقرئ لأحداث التاريخ الحديث يصدم حين يرى سلوك هؤلاء يختلف اختلافًا كليًا عما يقولونه جدًا أو هزلاً . وإذا كـان كـثـير مـن العرب: رسميين وغير رسميين ، ستدغدغ عـبـارات (مـيـلـلـر) عـواطـفـهـم ، وسيهز الفرح والاستبشار مشاعرهم طربًا لهذه العبارات العاطفية الصادقة التي تصدر عن ممثل الدولة التي زرعت إسرائيل في الجسد العربي؛ فإن الأغـلـبـية الـعـربـية التي تنطلق من مبدئية إسلامية تزن الأمور بميزان الإسلام ، وتقيس الكلام والشخصيات حسب ما توصيها به عقيدتها ينبغي أن لا تقيم لهذا الكلام وزنًا ، ولا تـرجـو مـن ورائـه ثـمـرة ، بـل يـحـسن بها أن تكون على حذر مما يكمن وراء أمثال هذه التصريحات ، ولا تنخدع بمن يعيشون على تسويق الأوهام التي يسمونها: حقوق الإنسان والمبادئ الحضارية ، والأخلاق !
أية حقوق؟! وأي إنسان؟ وأية حضارة؟! وأية أخلاق يدافع عنها هؤلاء؟!
هـل هـناك مـن شـك في أنهم لا يفـهـمـون من هذه الرموز إلا ما يريهم منها بصرهم القاصر ورؤيتهم العنصرية المحدودة التي تجعلهم يتجاهلون معاناة شعب كامل أصم صراخه سمع العالم ، وينقل لهم مراسلوهم ليل نهار أحواله وأخباره ، بل أنفاسه! وهل كانوا يجهلون ماذا سيحل بشعب شردوه من أرضه ، ليضعوها بين يدي إخوانهم اليهود؛ وجهه إلى الأسلحة التي زودوا بها هؤلاء؛ وظهره إلى الحدود التي أقاموها هم بخبث وخسة؟ ثم كيف يظن بعض الناس أن كلام المسؤول البريطاني ربما يكون تكفيرًا عما اقترفته دولته إذا كان يقول بعظمة لسانه: "إن هذا الكيان قد أنشىء على أساس قوة أخلاقية غاية في القوة"؟!

تمت بحمد الله